الشيخ ندا
أبو أحمد

الكتاب الجامع للفضائل

(٦٨)

متفرقات (أ)

فضل الإحسان إلى الناس- فضل الاعتدال والواسطية

فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين - فضل وفوائد الأُلفة

فضل الإيثار- فضل البر- فضل التأني

الشيخ/ندا أبو أحمد



الكتاب الجامع للفضائل

متفرقات (أ)

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠،٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

١- فضل الإحسان إلى الناس (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٢- فضل الاعتدال والواسطية (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٣- فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٤- فضل وفوائد الأُلفة (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٥- فضل الإيثار (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٦- فضل البر (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

٧- فضل التأني (من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة).

١- فضل الإحسان إلى الناس [1]:

أولًا: فضل الإحسان إلى الناس من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠).

وقرأ الحسَنُ البصريُّ -رحمه الله- هذه الآيةَ، ثمَّ وقف فقال: " إنَّ اللهَ جمع لكم الخيرَ كُلَّه والشَّرَّ كُلَّه في آيةٍ واحدةٍ؛ فواللهِ ما ترك العَدلُ والإحسانُ شيئًا من طاعةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ إلَّا جمَعَه، ولا ترك الفحشاءُ والمُنكَرُ والبَغيُ من معصيةِ اللهِ شيئًا إلَّا جمَعَه ". (حلية الأولياء لأبي نعيم:٢/١٥٨).

وقال السَّعديُّ -رحمه الله-: " الإحسانُ فضيلةٌ مُستحَبٌّ، وذلك كنَفعِ النَّاسِ بالمالِ والبَدَنِ والعِلمِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ النَّفعِ، حتَّى إنَّه يدخُلُ فيه الإحسانُ إلى الحيوانِ البهيمِ المأكولِ وغيرِه ".

(تيسير الكريم الرحمن ص: ٤٤٧).

وقال الرَّاغِبُ -رحمه الله-: " الإحسانُ فوقَ العَدلِ، وذاك أنَّ العَدلَ هو أن يُعطيَ ما عليه، ويأخُذَ أقلَّ ممَّا له، والإحسانُ أن يُعطِيَ أكثَرَ مما عليه، ويأخُذَ أقلَّ ممَّا له؛ فالإحسانُ زائدٌ على العَدلِ، فتحرِّي العدلِ واجبٌ، وتحرِّي الإحسانِ ندبٌ وتطوُّعٌ ". (المفردات في غريب القرآن ص: ٢٣٦).

٢- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (البقرة: ٨٣).

أي: أحسِنوا بالوالِدَين إحسانًا، وهذا يعُمُّ كُلَّ إحسانٍ قوليٍّ وفِعليٍّ ممَّا هو إحسانٌ إليهم، وفيه النَّهيُ عن الإساءةِ إلى الوالِدَين، أو عدَمِ الإحسانِ والإساءةِ؛ لأنَّ الواجِبَ الإحسانُ، والأمرُ بالشَّيءِ نهيٌ عن ضدِّه. وللإحسانِ ضِدَّان: الإساءةُ، وهي أعظَمُ جُرمًا، وتركُ الإحسانِ بدونِ إساءةٍ، وهذا محرَّمٌ، لكِنْ لا يجِبُ أن يُلحَقَ بالأوَّلِ، وكذا يُقالُ في صِلةِ الأقاربِ واليتامى والمساكينِ، وتفاصيلُ الإحسانِ لا تنحَصِرُ بالعَدِّ، بل تكونُ بالحَدِّ. وقد أمر اللهُ في القرآنِ بالإحسانِ إلى النَّاسِ عُمومًا، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ومن القَولِ الحَسَنِ: أمرُهم بالمعروفِ، ونهيُهم عن المُنكَرِ، وتعليمُهم العِلمَ، وبذلُ السَّلامِ، والبَشاشةُ، وغيرُ ذلك من كُلِّ كلامٍ طَيِّبٍ.

ولمَّا كان الإنسانُ لا يسَعُ النَّاسَ بمالِه، أُمِر بأمرٍ يَقدِرُ به على الإحسانِ إلى كُلِّ مخلوقٍ، وهو الإحسانُ بالقولِ، فيكونُ في ضِمنِ ذلك النَّهيُ عن الكلامِ القبيحِ للنَّاسِ حتَّى للكُفَّارِ.

(تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: ٥٧).

١- موسوعة الأخلاق والسلوك- الدرر السنية.

وفي قَولِه تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قاعدةٌ شرعيَّةٌ عامَّةٌ في أقوالِ النَّاسِ، وفي كلامِ بعضِهم مع بعضٍ، لفظًا ومعنًى، أُسلوبًا ومضمونًا، لو اتَّبعوها لعادت عليهم بركاتُها راحةً وسلامًا في الدُّنيا والآخرةِ.

(الأخلاق الفاضلة لعبد اللهِ بن ضيف الله الرحيلي ص: ٤١).

ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (الإسراء: ٥٣).

٣- وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

قال الشَّوكانيُّ -رحمه الله- في تفسيرِ قَولِه: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾:" أي: أحسِنْ إلى عبادِ اللهِ كما أحسَنَ اللهُ إليك بما أنعَم به عليك من نِعَمِ الدُّنيا ". (فتح القدير:٤/٢٦١).

٤- وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرَّحمن: ٦٠).

فالجزاءُ من جِنسِ العمَلِ، يعني: هل جزاءُ العمَلِ الصَّالحِ الذي أحسَن فيه صاحبُه إلَّا الإحسانُ بالثَّوابِ.

(فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام لابن عثيمين:١/٤٣١).

وهذا كلامٌ عامٌّ في كُلِّ إحسانٍ من الإنسانِ، سواءٌ كان إلى نفسِه أو إلى الغيرِ؛ فإنَّه يُجازى عليه من اللهِ بإحسانِ الأجرِ والثَّوابِ. (مفاتيح الغيب للرازي:٢٩/٣٧٧).

٥- وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وفيه تحريضٌ على الإحسانِ وترغيبٌ فيه، ووجهُ ذلك: أنَّ قُربَه تبارك وتعالى من المحسِنين وقُربَ رحمتِه منهم متلازمانِ، وقربُ اللهِ تعالى من عَبدِه هو غايةُ الأماني ونهايةُ الآمالِ؛ فإذا كانت رحمتُه قريبةً منهم، فهو أيضًا قريبٌ منهم سُبحانَه بسببِ إحسانِهم، وكُلَّما كان العبدُ أكثَرَ إحسانًا كان أقرَبَ إلى رحمةِ رَبِّه تعالى، وكان ربُّه قريبًا منه برحمتِه.

(بدائع الفوائد لابن القيم:٣/٣١) (تفسير السعدي ص: ٢٩١).

والجزاءُ من جنسِ العَمَلِ، فكما أحسَنوا بأعمالِهم أحسَنَ اللهُ إليهم برحمتِه. (بدائع الفوائد لابن القيم:٣/١٧)

٦- الفوز بمعية الله تعالى:

فأهل الإحسان يفوزون بمعية الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(سورة العنكبوت:٦٩)

فالفوز بمعية الله منقبة عظيمة، فمن وجد الله؛ فماذا فقد؟ ومن فقد الله؛ فماذا وجد؟.

وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر - قاضي الري- حدثنا أبو جعفر الرازي عن المغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم -عليه السلام-: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ".

٧- الفوز محبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٥)

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(آل عمران: ١٣٤)

قال ابنُ كثيرٍ -رحمه الله- في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: لا يُعمِلون غضَبَهم في النَّاسِ، بل يكفُّون عنهم شرَّهم، ويحتَسِبون ذلك عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: مع كَفِّ الشَّرِّ يعفون عمَّن ظلمَهم في أنفُسِهم، فلا يبقى في أنفُسِهم مَوجِدةٌ على أحَدٍ، وهذا أكمَلُ الأحوالِ؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا من مقاماتِ الإحسانِ ".

(تفسير القرآن العظيم:٢/١٢٢)

- ومن فاز بمحبة الله تعالى، فقد فاز في الدارين:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: " إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ، وإذا أبْغَضَ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فيَقولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضْهُ، قالَ فيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في أهْلِ السَّماءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضُوهُ، قالَ: فيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضاءُ في الأرْضِ.

وصِفةُ المَحبَّةِ ثابتةٌ للهِ سُبحانَه على ظاهِرِها على ما يَليقُ بجَلالِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وحُبُّ جبريلَ والمَلائكةِ يَحتَمِلُ وَجهَيْنِ؛ أحَدُهما: استِغفارُهم له، وثَناؤُهم عليه، ودُعاؤُهم، والوَجْهُ الآخَرُ: أنَّ مَحَبَّتَهم على ظاهِرِها المَعروفِ مِنَ المَخلوقينَ، وهو مَيلُ القَلبِ إليه، واشتياقُه إلى لِقائِه، وسَبَبُ حُبِّهم إيَّاه كَونُه مُطيعًا للهِ تَعالى، مَحبوبًا منه.

وأخرج البخاري من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: " إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ(١)، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها(٢)، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ.

١- فمن عادى وَلِيَّ اللهِ، فقدْ أعلَنَ اللهُ سُبحانَه الحربَ عليه، وهذا فيه الغايةُ القُصوى مِنَ التَّهديدِ؛ إذ مَن حارَبَه اللهُ وعامَلَه مُعاملةَ المحارِبِ، فهو هالكٌ لا مَحالةَ، ومَن يُطيقُ حرْبَ اللهِ؟!

٢- فإذا أكثَرَ الإنسانُ مِنَ النَّوافِلِ مع قيامِه بالفرائِضِ، نال محبَّةَ اللهِ، فيُحِبُّه اللهُ، وإذا أحَبَّه كان اللهُ سُبحانَه سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرُه الذي يُبصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه التي يَمْشِي بها، يعني أنَّه يكونُ مُسَدِّدًا له في هذه الأعضاءِ الأربعةِ؛ يُسَدِّدُه في سمعِه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُرضي اللهَ، ويُسَدِّدُه في بَصَرِه، فلا يَنظُرُ إلَّا إلى ما يحِبُّ اللهُ النَّظَرَ إليه، ولا ينظُرُ إلى المحَرَّمِ، ويُسَدِّدُه في يَدِه، فلا يعمَلُ بيَدِه إلَّا ما يُرضي اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يُسَدِّدُه، وكذلك رِجْلُه، فلا يمشي إلَّا إلى ما يُرضي اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يُسَدِّدُه، فلا يسعى إلَّا إلى ما فيه الخيرُ.

٨- أهل الإحسان هم أهل المزيد:

قال تعالى: ﴿ . . .وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ٥٨)

وقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن، أي: من كان منكم محسنًا زيد في إحسانه ومن كان مخطئًا نغفر له خطيئاته. (التفسير الوسيط)

٩- أهل الإحسان لا يخافون ولا يحزنون:

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١١٢)

وقوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ف ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: ف ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني: لا يحزنون للموت.

١٠- أهل الإحسان يفوزون بجنة الرحمن:

قال تعالى: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٨٥)

وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (سورة يونس: ٢٦)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات: ١٥، ١٦)

ثانياً: فضل الإحسان إلى الناس من السنة النبوية المباركة:

١- أخرج الإمام مسلم من حديث شَدَّادِ بنِ أوسٍ ﷺ قال: **" ثِنْتانِ حَفِظْتُهما عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قال: إنَّ اللهَ كَتَب الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ، فإذا قتَلْتُم فأحسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذبَحتُم فأحسِنوا الذَّبحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكم شَفْرَتَه، فلْيُرِحْ ذَبيحتَه ".**

والإحسانُ هنا هو الإحكامُ والإكمالُ، والتَّحسينُ في الأعمالِ المشروعةِ؛ فحَقُّ من شَرَع في شيءٍ منها أن يأتيَ به على غايةِ كمالِه، ويحافِظَ على آدابِه المصحِّحةِ، والمُكَمِّلةِ، وإذا فعَل ذلك قُبِل عَمَلُه، وكَثُر ثوابُه.
(شرح النووي على مسلم:١٣/١٠٧)

والحديثُ يدُلُّ على وجوبِ الإحسانِ في كُلِّ شيءٍ من الأعمالِ، لكِنْ إحسانُ كُلِّ شيءٍ بحَسَبِه، والإحسانُ الواجِبُ في معاملةِ الخَلقِ ومعاشرتِهم: القيامُ بما أوجَب اللهُ من حقوقِ ذلك كُلِّه.

(جامع العلوم والحكم لابن رجب:١/٣٨٢)

وقال المباركفوريُّ-رحمه الله-: " قولُه:" **إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ**" أي: إلى كُلِّ شيءٍ، أو "على" بمعنى:" في"، أي: أمَركم بالإحسانِ في كُلِّ شيءٍ، والمرادُ منه العمومُ الشَّاملُ للإنسانِ حَيًّا وميِّتًا، وضَمَّن الإحسانَ معنى التَّفضُّلِ وعدَّاه بعلى ". (تحفة الأحوذي:٤/٦٦٤).

وفي قولِه ﷺ:" **إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ..**"؛ قاعدةٌ أخلاقيَّةٌ تربويَّةٌ قويمةٌ، وقاعدةٌ أساسيَّةٌ لا يُغني عنها سِواها، ومِن ثَمَّ جاءت هكذا عامَّةً لتدخُلَ في كُلِّ عَمَلٍ أو تصرُّفٍ أخلاقيٍّ يقومُ به الإنسانُ، ومطَّرِدةً بحيثُ لا يُستثنى منها حالةٌ من الحالاتِ؛ فاللهُ كتب الإحسانَ في كُلِّ شيءٍ، وإذا كان الإنسانُ لا ينفَكُّ عن العَمَلِ ما دام حيًّا، فإنَّ عَمَلَه يجبُ أن لا ينفَكَّ عن الإحسانِ، وإذا كان الإنسانُ كذلك فقد أصبح على الخُلُقِ الفاضلِ القويمِ. (الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها لعبد الله بن ضيف الله الرحيلي ص: ٥٧).

٢- وأخرج الإمام مسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو-رَضِيَ اللهُ عنهما- قال: **" أقبَل رجلٌ إلى نبيِّ اللهِ ﷺ، فقال: أبايعُك على الهِجرةِ والجِهادِ، أبتغي الأجرَ من اللهِ، قال: فهل من والِدَيك أحدٌ حَيٌّ؟ قال: نعَمْ، بل كِلاهما. قال: فتبتغي الأجرَ من اللهِ؟ قال: نعَمْ، قال: فارجِعْ إلى والِدَيك فأحسِنْ صُحبتَهما".**

أي: أحسِنْ إليهما وبَرَّهما، قال النَّوويُّ:" هذا دليلٌ لعِظَمِ فضيلةِ برِّهما ". (شرح النووي على مسلم: ١٦/١٠٤)

٣- وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو-رَضِيَ اللهُ عنهما-: **" أنَّ رجلًا سأل رسولَ اللهِ ﷺ: أيُّ الاسلامِ خيرٌ؟ قال: تُطعِمُ الطَّعامَ، وتقرَأُ السَّلامَ على من عرَفْتَ ومَن لم تعرِفْ ".**

وجمَع في الحديثِ بَيْنَ إطعامِ الطَّعامِ، وإفشاءِ السَّلامِ؛ لأنَّه به يجتَمِعُ الإحسانُ بالقولِ والفعلِ، وهو أكمَلُ الإحسانِ ". (البحر المحيط الثجاج للإثيوبي:٢/٨٨).

٤- *وأخرج الترمذي وابن ماجه من حديث سُلَيمانَ بنِ عَمرِو بنِ الأحوَصِ قال:* حدَّثني أبي أنَّه شَهِد حَجَّةَ الوداعِ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فحَمِد اللهَ، وأثنى عليه، وذكَّر، ووعَظ، فذكَر في الحديثِ قِصَّةً، فقال: ألا واستوصوا بالنِّساءِ خَيرًا؛ فإنَّما هنَّ عوانٌ عندكم، ليس تملِكون منهنَّ شيئًا غيرَ ذلك، إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ، فإن فعَلْنَ فاهجُروهنَّ في المضاجِعِ، واضرِبوهنَّ ضَربًا غيرَ مُبرِّحٍ، فإن أطَعْنَكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلًا، ألا إنَّ لكم على نسائِكم حقًّا، ولنسائِكم عليكم حقًّا؛ فأمَّا حقُّكم على نسائِكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتِكم لمن تكرَهون، ألا وحَقُّهنَّ عليكم أن تحسِنوا إليهنَّ في كِسْوتِهنَّ وطعامِهنَّ ". (صحيح سنن الترمذي:١١٦٣) (وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح مشكل الآثار:٤٨٦٥).

فقد أوصى النَّبيُّ ﷺ بهنَّ خيرًا بالإحسانِ إليهنَّ، وأوضح أنَّ الزَّوجاتِ لهنَّ النَّفَقةُ على قَدْرِ كفايتِهنَّ، من غيرِ إفراطٍ أو تفريطٍ، وكذلك أوصى النِّساءَ بالإحسانِ إلى أزواجِهنَّ؛ فالإحسانُ شامِلٌ في حَقِّ بعضِهم البعضِ. (التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني:٢١٨/١) (تحفة الأحوذي للمباركفوري:٤٨٣/٨).

٥- *وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:* " مَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةً، ومن هَمَّ بحَسَنةٍ فعَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا إلى سبعِمئةِ ضِعفٍ، ومن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلم يعمَلْها لم تُكتَبْ، وإنْ عَمِلها كُتِبَت ".

والحَسَنةُ تَشمَلُ كُلَّ قَولٍ أو عَمَلٍ حَسَنٍ، ومن ذلك إحسانُ المُسلِمِ إلى غيرِه بالقَولِ أو الفِعلِ، وهذا الحديثُ وأمثالُه يدُلُّ دَلالةً شاملةً على مضاعفةِ اللهِ سُبحانَه أجرَ مَن عَمِلَ عمَلًا وأحسَنَ فيه بصفةٍ عامَّةٍ، سواءٌ أحسَن في عمَلِه أو أحسَن إلى غيرِه، **ومثلُ ذلك في قولِ اللهِ تعالى:** ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)؛ فإنفاقُ الأموالِ في سبيلِ اللهِ إحسانٌ من العبدِ لنفسِه وإحسانٌ صادِرٌ منه إلى غيرِه، وتكونُ مضاعَفةُ الأجرِ للمُحسِنين بحسَبِ الإخلاصِ، وصِدقِ العَزمِ، وحضورِ القَلبِ، وتعدِّي النَّفعِ، والحَسَنةُ والسَّيِّئةُ هاهنا: يُقصَدُ بها كُلُّ حَسَنةٍ وكُلُّ سَيِّئةٍ، وقد قَيَّد الحسَنةَ والسَّيِّئةَ بالعَمَلِ بقَولِه: "يعمَلُها" في بعضِ الأحاديثِ، وأطلقها في البعضِ، فيُحمَلُ المُطلَقُ على المقيَّدِ؛ لأنَّ الحسَنةَ المنويَّةَ لا تُكتَبُ بالعَشرِ؛ إذ لا بُدَّ من العمَلِ حتى تُكتَبَ بها، وأمَّا السَّيِّئةُ فلا اعتدادَ بها دونَ العمَلِ أصلًا.

(شرح صحيح البخاري لابن بطال:٩٩/١)(شرح النووي على مسلم:١٤٨/٢)(عمدة القاري للعيني:٢٥٤/١)

ثالثًا: فضل الإحسان إلى الناس من أقوال السلف:

١- ***كتب عُمَرُ بنُ عَبدِ العزيزِ -رحمه الله- إلى عبدِ الحميدِ صاحبِ الكُوفةِ رسالةً، وفيها:***"... إنَّ قَوامَ الدِّينِ: العَدلُ، والإحسانُ ". (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم:٥/٢٨٦).

٢- ***وقال رجُلٌ ليُونُسَ بنِ عُبَيدٍ -رحمه الله-: أوصِني، فقال:***" أوصيك بتقوى اللهِ والإحسانِ؛ فإنَّ اللهَ مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحسِنون ". (جامع العلوم والحكم لابن رجب:١/٤٠٦).

٣- ***وقال ابنُ حِبَّانَ -رحمه الله-:***" لا سَبَبَ لتسكينِ الإساءةِ أحسَنُ من الإحسانِ ". (روضة العقلاء ص: ١٦٦).

٤- ***وقال ابنُ حِبَّانَ أيضًا:***" لا يجِبُ الهِجرانُ بَيْنَ المُسلِمين عِندَ وُجودِ زَلَّةٍ من أحَدِهما، بل يجِبُ عليهما صَرفُها إلى الإحسانِ، والعَطفُ عليه بالإشفاقِ وتَركِ الهِجرانِ ". (روضة العقلاء ص: ٢٠٤).

٥- ***وقال ابنُ تيميةَ -رحمه الله-:***" على الإنسانِ أنْ يكونَ مقصودُه نفعَ الخلقِ، والإحسانَ إليهم مطلقًا، وهذا هو الرحمةُ التي بُعِث بها محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم في قولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والرحمةُ يحصلُ بها نفعُ العبادِ، فعلى العبدِ أنْ يقصِدَ الرحمةَ والإحسانَ والنَّفعَ ".
(جامع المسائل لابن تيمية - المجموعة السادسة:١/ ٣٧).

٦- ***وقال ابنُ القَيِّمِ -رحمه الله-:***" مِفتاحُ حُصولِ الرَّحمةِ الإحسانُ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيُ في نَفعِ عَبيدِه ". (حادي الأرواح ص: ٦٩).

٧- ***وقال أيضًا:***" الإحسانُ يُفرِحُ القَلبَ، ويَشرَحُ الصَّدرَ، ويَجلِبُ النِّعَمَ، ويدفَعُ النِّقَمَ، وتركُه يوجِبُ الضَّيمَ والضِّيقَ، ويمنعُ وُصولَ النِّعَمَ إليه ". (طريق الهجرتين ص: ٤٦٠).

٨- ***وقال ابنُ عُثَيمين -رحمه الله-:***" كلَّما كنتَ في حاجةِ أخيك كان اللهُ في حاجتِك، فأكثِرْ من المعروفِ، أكثِرْ من الإحسانِ، ولا تحقِرَنَّ شيئًا ولو كان قليلًا ". (شرح رياض الصالحين:٤/٢٩٥).

ومن فوائد وفضائل الإحسان إلى الناس كذلك:

١- تماسُكُ بُنيانِ المجتمَعِ، ووقايتُه من الآفاتِ الاجتماعيَّةِ.

٢- المحسِنُ يكونُ في معيَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ **قال تعالى:** ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

٣- المُحسِنُ يكتَسِبُ بإحسانِه محبَّةَ اللهِ؛ **قال تعالى:** ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

٤- للمُحسِنين أجرٌ عظيمٌ في الآخرةِ، ويكونون في مأمَنٍ من الخوفِ والحُزنِ؛ **قال تعالى:** ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:١١٢).

٥- المُحسِنُ قريبٌ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ **قال تعالى:** ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف:٥٦)

٦- الإحسانُ هو وسيلةُ المجتمَعِ للرُّقِيِّ والتَّقدُّمِ، وإذا كان صِنْوُه-أي: العَدلُ- وَسيلةً لحفظِ النَّوعِ البشَريِّ، فإنَّ الإحسانَ هو وسيلةُ تقدُّمِه ورُقِيِّه؛ لأنَّه يؤدِّي إلى توثيقِ الرَّوابطِ وتوفيرِ التَّعاوُنِ.

٧- الإحسانُ وسيلةٌ لإزالةِ ما في النُّفوسِ من الكَدَرِ وسُوءِ الفَهمِ وسُوءِ الظَّنِّ ونحوِ ذلك.

٨- الإحسانُ إلى النَّاسِ سَبَبٌ من أسبابِ انشِراحِ الصَّدرِ؛ فالذي يحسِنُ إلى النَّاسِ ينشَرِحُ صَدرُه، ويشعرُ بالرَّاحةِ النَّفسيَّةِ؛ **قال ابنُ القيِّم:**" إنَّ الكريمَ المُحسِنَ أشرَحُ النَّاسِ صَدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعَمُهم قلبًا، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسانٌ أضيَقُ النَّاسِ صدرًا، وأنكَدُهم عيشًا، وأعظَمُهم همًّا وغمًّا ". (زاد المعاد:٢/٢٢).

٩- الإحسانُ إلى النَّاسِ يُطفِئُ نارَ الحسَدِ، ويدفَعُ العداوةَ؛ إطفاءُ نارِ الحاسِدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه؛ فكلَّما ازداد أذًى وشَرًّا وبَغيًا وحسَدًا ازدَدْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شَفَقةً، وما أظنُّك تُصَدِّقُ بأنَّ هذا يكونُ، فضلًا عن أن تتعاطاه! **فاسمعِ الآنَ قولَه عزَّ وجَلَّ:** ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٤- ٣٦)

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (القصص: ٥٤)

" هذا مع أنَّه لا بُدَّ له مع عَدُوِّه وحاسِدِه من إحدى حالتَينِ؛ إمَّا أن يملِكَه بإحسانِه فيستَعبِدَه وينقادَ له ويَذِلَّ له، ويبقى من أحبِّ النَّاسِ إليه، وإمَّا أن يُفَتِّتَ كَبِدَه ويقطَعَ دابِرَه إن أقام على إساءتِه إليه؛ فإنَّه يذيقُه بإحسانِه أضعافَ ما ينالُ منه بانتقامِه، ومَن جَرَّب هذا عرَفَه حقَّ المعرفةِ، واللهُ هو الموفِّقُ المُعينُ، بيَدِه الخيرُ كُلُّه لا إلهَ غَيرُه، وهو المسؤولُ أن يستعمِلَنا وإخوانَنا في ذلك بمَنِّه وكَرَمِه ".

(بدائع الفوائد لابن القيم:٢/٢٤٣-٢٤٤).

١٠- من أسبابِ إزالةِ الهَمِّ والغَمِّ؛ قال السَّعديُّ-رحمه الله-:" من الأسبابِ التي تُزيلُ الهَمَّ والغَمَّ والقَلَقَ: الإحسانُ إلى الخَلقِ بالقَولِ والفِعلِ، وأنواعِ المعروفِ، وكُلُّها خيرٌ وإحسانٌ، وبها يدفَعُ اللهُ عن البَرِّ والفاجِرِ الهمومَ والغُمومَ بحَسَبِها، ولكِنْ للمُؤمِنِ منها أكمَلُ الحَظِّ والنَّصيبِ ". (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ص: ١٦).

١١- تثبيتُ دعائمِ الأُخُوَّةِ والمحبَّةِ بَيْنَ المُسلِمين.

١٢- من أسبابِ جَلبِ النِّعَمِ، ودَفعِ النِّقَمِ.

٢- فضل الاعتدال والواسطية [1]

أولًا: فضل الاعتدال والواسطية من القرآن:

وردت عِدَّةُ آياتٍ في الحَثِّ على الاعتِدالِ والوَسَطيَّةِ؛ منها:

١– قَولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)

أي وسطًا بَيْنَ الغُلُوِّ والتَّقصيرِ؛ فالنَّصارى غَلَوا في دينِهم، واليهودُ قَصَّروا، وأمَّا المُسلِمون فأخذوا بالنَّمَطِ الأوسَطِ. (الكشف والبيان للثعلبي:٤/ ٤١) (التفسير لأبي المظفر السمعاني:١/ ١٤٩).

٢– وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨)

قال قتادةُ –رحمه الله–: " هو أعدَلُهم وخَيرُهم ". (التفسير لعبد الرزاق:٣/ ٣٣٥)

٣– وقَولُه تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧)، معتَدِلًا قَصدًا وَسَطًا بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ، لا مجاوَزةً عن حدِّ اللَّهِ، ولا تقصيرًا عمَّا فَرَضه اللَّهُ.

(جامع البيان لابن جرير الطبري:١٧/ ٥٠٣) (معالم التنزيل للبغوي:٦/ ٩٥).

٤– وقَولُه تعالى: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ (المائدة: ٦٦)، معناه: معتَدِلةٌ، والقَصدُ والاقتِصادُ: الاعتِدالُ والرِّفقُ والتَّوسُّطُ الحَسَنُ في الأقوالِ والأفعالِ. (المحرر الوجيز لابن عطية:٢/ ٢١٧).

٥– وقَولُه تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ (لقمان: ١٩) أي: اعدِلْ وتوَسَّطْ في مشيِك، لا إفراطَ ولا تفريطَ، مجانِبًا لوَثبِ الشُّطَّارِ ودبيبِ المتماوِتينَ (نظم الدرر للبقاعي:١٥/ ١٧٨)؛ قال الخَطيبُ:" والقَصدُ إنَّما هو سلوكُ الطَّريقةِ المتوَسِّطةِ بَيْنَ الأمرَينِ، ودينُ اللَّهِ بَيْنَ الغالي فيه والمُقَصِّرِ عنه ".

(مسألة في الصفات للخطيب البغدادي ص: ٨).

ثانياً: فضل الاعتدال والواسطية من السنة المباركة:

١– أخرج النسائي وابن ماجه وأحمد من حديث ابنِ عبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عنهما– قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:" **إيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّينِ** ". (صحَّحه ابنُ حبان في صحيحه:٣٨٧١، وابن عبد البر في التمهيد:٤٢٨/٢٤)

وهذا عامٌّ في جميعِ أنواعِ الغُلُوِّ في الاعتقاداتِ والأعمالِ. (اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص: ١٠٦).

٢– وأخرج الإمام مسلم من حديث جابِرِ بنِ سَمُرةَ رضي الله عنه قال:" كُنتُ أُصَلِّي مع رسولِ اللَّهِ ﷺ، فكانت صلاتُه قَصدًا، وخُطبتُه قَصدًا ".

أي: مُتوَسِّطةً بَيْنَ الطُّولِ والقِصَرِ. (إكمال المعلم للقاضي عياض:٣/ ٢٧٢).

١ـ موسوعة الأخلاق والسلوك ـ الدرر السنية.

٣- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ يقولُ:* " جاء ثلاثةُ رَهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادةِ النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنَّهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النَّبيِّ ﷺ؟ قد غُفِر له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أمَّا أنا فإنِّي أصَلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النِّساءِ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء رسولُ اللَّهِ ﷺ إليهم، فقال: أنتم الذين قُلتُم كذا وكذا؟! أمَا واللَّهِ إنِّي لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصَلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني ".

أي: لو كان ما استأثَرْتُموه من الإفراطِ في الرِّياضةِ أحسَنُ ممَّا أنا عليه من الاعتِدالِ والتَّوسُّطِ في الأمورِ لَمَا أعرَضْتَ عنه. (تحفة الأبرار للبيضاوي:١/ ١٢٣).

٤- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال:* " *قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:* " قاربوا وسَدِّدوا ".

أي: اقتَصِدوا فلا تَغْلُوا ولا تُقَصِّروا، بل توسَّطوا. (شرح مسلم للنووي:١٦/ ١٣٠).

٥- *وأخرج الإمام أحمد والنسائي في السنن الكبرى والدارمي من حديث عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ ﷺ قال:* " خَطَّ لنا رسولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثمَّ قال: هذا سبيلُ اللَّهِ، ثمَّ خَطَّ خطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه، ثمَّ قال: هذه سُبُلٌ مُتفرِّقةٌ، على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ". (صحَّحه الألباني في شرح الطحاوية:٥٢٥)

وفيه: إشارةٌ إلى أنَّ سبيلَ اللَّهِ وَسَطٌ، ليس فيها تفريطٌ ولا إفراطٌ، وسَبيلُ أهلِ البِدَعِ ما يلي إلى جانِبٍ فيه تقصيرٌ أو غُلُوٌّ. (شرح مصابيح السنة لابن الملك:١/ ١٧٤).

ثالثًا: فضل الاعتدال والواسطية من أقوال السلف:

١- *يُروى عن علـيِّ بنِ أبي طالِبٍ ﷺ قال:* " خَيرُ النَّاسِ هذا النَّمطُ الأوسَطُ، يلحَقُ بهم التَّالي، ويرجِعُ إليهم الغالي ". (الأمثال لابن سلام ص: ٢٢٠) (العقد الفريد لابن عبد ربه:٢/ ٢١١)

٢- *وقال سَلمانُ الفارِسيُّ ﷺ:* " القَصدُ والدَّوامُ، وأنت الجوادُ السَّابِقُ ". (العقد الفريد لابن عبد ربه:٢/ ٢١١).

٣- *وعن طارِقِ بنِ شِهابٍ أنَّه بات عِندَ سَلمانَ يَنظُرُ اجتِهادَه، قال:* فقام فصلَّى من آخِرِ اللَّيلِ، فكأنَّه لم يَرَ الذي كان يظُنُّ، فذَكَر ذلك له، فقال سَلْمانُ: حافِظوا على هذه الصَّلَواتِ الخَمسِ؛ فإنَّهنَّ كفَّاراتٌ لهذه الجِراحاتِ ما لم تُصِبِ المَقْتَلةَ، فإذا أمسى النَّاسُ كانوا على ثلاثِ منازِلَ؛ فمنهم من له ولا عليه، ومنهم من عليه ولا له، ومنهم لا له ولا عليه، فرجُلٌ اغتنم ظُلمةَ اللَّيلِ، وغَفلةَ النَّاسِ، فقام يصَلِّي حتَّى أصبح، فذلك له ولا عليه، ورجُلٌ اغتنم غَفلةَ النَّاسِ، وظُلمةَ اللَّيلِ، فرَكِبَ رأسَه في المعاصي، فذلك عليه ولا له، ورجُلٌ صَلَّى العِشاءَ ثمَّ نام، فذلك لا له ولا عليه، فإيَّاك والحَقْحَقةَ [1]، وعليك بالقَصدِ والدَّوامِ". (المصنف لعبد الرزاق الصنعاني:١/ ٤٨) (الزهد لأبي داود:٢٥٦)

١- الحَقْحَقةُ: هو المُتعِبُ من السَّيرِ. وقيل: هو أن تحمِلَ الدَّابَّةَ على ما لا تطيقُه. يُنظَر: (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير:١/ ٤١٢).

٤- ***وقال الحَسَنِ-رحمه الله-:*** " إنَّ هذا الدِّينَ دينٌ واصِبٌ، وإنَّه من لا يَصبِرْ عليه يَدَعْه، وإنَّ الحَقَّ ثقيلٌ، وإنَّ الإنسانَ ضعيفٌ، وكان يقالُ: لِيأخُذْ أحَدُكم من العَمَلِ ما يطيقُ؛ فإنَّه لا يدري ما قَدْرُ أجَلِه، وإنَّ العبدَ إذا رَكِبَ بنَفسِه العُنفَ، وكَلَّف نفسَه ما لا يُطيقُ؛ أوشَك أن يُسَيِّبَ ذلك كُلَّه، حتَّى لعَلَّه لا يقيمُ الفريضةَ، وإذا رَكِبَ بنفسِه التَّيسيرَ والتَّخفيفَ، وكَلَّف نفسَه ما تطيقُ، كان أكيَسَ- أو قال: كان أكثَرَ- العامِلين، وأمنَعَها من هذا العَدُوِّ ". **(الزهد والرقائق لابن المبارك:١٣٣٠).**

٥- ***وقال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ-رحمه الله- لابنِه:*** " الحَسَنةُ بَيْنَ السَّيِّئتَينِ، وخيرُ الأمورِ أوساطُها، وشَرُّ السَّيرِ الحَقْحَقةُ ".

(الأمثال لابن سلام ص: ٢٢٠) (عيون الأخبار لابن قتيبة:١/ ٢٢٢) (العقد الفريد لابن عبد ربه:٢/ ٢١١).

قال ابنُ قُتيبةَ-رحمه الله- في قَولِ مُطَرِّفٍ: " الحَسَنةُ بَيْنَ السَّيِّئتَينِ": يعني: بَيْنَ الإفراطِ والتَّقصيرِ.

(عيون الأخبار لابن قتيبة:١/٤٤٨)

وقال أبو العَبَّاسِ المُبَرِّدُ: " قَولُه: "الحَسَنةُ بَيْنَ السَّيِّئتَينِ"، يقولُ: الحَقُّ بَيْنَ فِعلِ المُقَصِّرِ والغالي. ومِن كلامِهم: خيرُ الأمورِ أوسَطُها.

قولُه:" وشَرُّ السَّيرِ الحَقْحَقةُ "، وهو أن يستفرِغَ المُسافِرُ جَهْدَ ظَهرِه فيَقطَعَه، فيُهلِكَ ظَهْرَه، ولا يَبلُغَ حاجتَه. يقال: حَقْحَقَ السَّيرَ: إذا فَعَل ذلك ". **(الكامل في اللغة والأدب:١/ ١٩٥).**

٦- ***وقال وَهبُ بنُ مُنَبِّهٍ-رحمه الله-:*** " إذا أخَذْتَ بواحِدٍ مِن طرفَيِ العُودِ مال، فإذا أخَذْتَ بوَسَطِه اعتَدَل" **(التفسير لأبي المظفر السمعاني:٤/ ٣١).**

٧- ***وقال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ-رحمه الله-:*** " خيرُ الأمورِ أوساطُها ".

(المصنف لابن أبي شيبة:٧/ ١٧٩)

٨- ***وقال الأوزاعيِّ-رحمه الله-:*** " ما مِن أمرٍ أمَرَ اللَّهُ به إلَّا عارَض الشَّيطانُ فيه بخَصلَتينِ لا يبالي أيَّهما أصاب: الغُلُوُّ أو التَّقصيرُ ". **(كشف الخفاء للعجلوني:١/ ٤٧٠).**

٩- ***وقال ابنُ قُتَيبةَ-رحمه الله-:*** " خيرُ الأشياءِ أوساطُها، والغُلُوُّ والتَّقصيرُ مذمومانِ ".

(غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٦٥).

١٠- ***وقال ابنُ بطَّالٍ-رحمه الله-:*** " الأخذُ بالتَّوسُّطِ والقَصدِ في العبادةِ أَولى؛ حتى لا يَعجِزَ عن شيءٍ منها ". **(شرح البخاري لابن بطال:٧/ ١٦٠).**

١١- ***وقال الزَّمخشَريِّ-رحمه الله-:*** " الأطرافُ يتسارَعُ إليها الخَلَلُ، والأوساطُ محميَّةٌ مَحوطةٌ، ومنه قولُ الطَّائيِّ: كانت هي الوسَطَ المحميَّ فاكتنَفَت بها الحوادِثُ حتَّى أصبَحَت طَرَفَا ". **(الكشاف للزمخشري:١/ ١٩٨).**

١٢- ***وقال البيضاويُّ-رحمه الله-:*** " الاقتصادُ في جميعِ الأمورِ محبوبٌ ". **(أنوار التنزيل للبيضاوي:٣/ ٢٧٠).**

١٣- *وقال الرَّازيُّ-رحمه الله-:* " لا شَكَّ أنَّ طرَفَي الإفراطِ والتَّفريطِ رديئانِ؛ فالمتوسِّطُ في الأخلاقِ يكونُ بعيدًا عن الطَّرفَينِ، فكان معتَدِلًا فاضِلًا ". (مفاتيح الغيب للرازي:٤/ ٨٤).

١٤- *وقال الذَّهَبيُّ-رحمه الله-:* " ينبغي لِمَن كان ضحوكًا بسَّامًا أن يَقصُرَ من ذلك، ويلومَ نفسَه حتَّى لا تمُجَّه الأنفُسُ، وينبغي لمن كان عَبوسًا منقَبِضًا أن يتبَسَّمَ، ويُحسِّنَ خُلُقَه، ويمقُتَ نفسَه على رداءةِ خُلُقِه، وكلُّ انحرافٍ عن الاعتِدالِ فمذمومٌ، ولا بُدَّ للنَّفسِ من مجاهَدةٍ وتأديبٍ ". (سير أعلام النبلاء للذهبي:١٠/ ١٤١).

١٥- *وقال ابنُ القَيِّمِ-رحمه الله-:* " والدِّينُ كُلُّه بَيْنَ طَرَفَي الإفراطِ والتَّفريطِ، بل الإسلامُ قَصدٌ بَيْنَ المِلَلِ، والسُّنَّةُ قَصدٌ بَيْنَ البِدَعِ، ودينُ اللَّهِ بَيْنَ الغالي فيه والجافي عنه ". (الروح لابن القيم ص: ٢٥٧).

١٦- *وقال ابنُ رَجَبٍ-رحمه الله-:* " الاقتصادُ في كُلِّ الأمورِ حَسَنٌ حتَّى في العبادةِ ".
(التفسير لابن رجب الحنبلي:١/ ٦٢٨).

١٧- *وقال الشَّاطبيُّ-رحمه الله-:* " الشَّريعةُ جاريةٌ في التَّكليفِ بمُقتضاها على الطَّريقِ الوَسَطِ الأعدَلِ، الآخِذِ من الطَّرَفينِ بقِسطٍ لا مَيلَ فيه ". (الموافقات للشاطبي:٢/ ٢٧٩).

١٨- *وقال البِقاعيُّ-رحمه الله-:* "... رأسُ الأعمالِ الصَّالحةِ الاستقامةُ على حَدِّ الاعتِدالِ ".
(نظم الدرر للبقاعي:١٧/ ١٨٢).

١٩- *وقال الثَّعالبيُّ-رحمه الله-:* " لا تكُنْ رَطبًا فتُعصَرَ، ولا يابِسًا فتُكسَرَ، ولا تكُنْ حُلوًا فتُستَرَطَ[1]، ولا مُرًّا فتُلفَظَ ". (التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص: ٤٢٩).

ومن فضائل الاعتدال والواسطية كذلك:

١- أن التَّوسُّطُ هو رأسُ الفضائِلِ، وتحتَه تندَرِجُ كُلُّ فضيلةٍ، **قال الفيروز أبادي-رحمه الله-:** " والتَّوسُّطُ منشَأُ جميعِ الأخلاقِ الفاضِلةِ ". (بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي:٢/ ٥٦٩).

٢- لا سبيلَ إلى تحصيلِ الخيرِ إلَّا بالاعتِدالِ؛ لأنَّ الخيرَ متوسِّطٌ بَيْنَ رذيلتينِ.
(مداواة النفوس لابن حزم ص: ٨١) (فيض القدير للمناوي:٣/ ١٦٠).

٣- القَصدُ والتَّوسُّطُ مَظِنَّةُ الدَّوامِ على الطَّاعةِ؛ لعدَمِ المشقَّةِ والمَلَلِ، قال المُظهِريُّ:" لو بالَغ في الطَّاعاتِ لا يَقدِرُ أن يكونَ فيها على الدَّوامِ؛ لأنَّه يَعجِزُ ". (المفاتيح للمظهري:٥/ ٢٤٧).

٤- التَّوسُّطُ سَبَبُ صِحَّةِ المعتَقَدِ، ولزومِ المنهَجِ القويمِ.

٥- السَّلامةُ من الإثمِ.

٦- لا تُكتَسَبُ الأخلاقُ إلَّا بالتَّوسُّطِ؛ لأنَّ الفضيلةَ بَيْنَ طرفَينِ مذمومينِ، كالجُودِ بَيْنَ البُخلِ والتَّبذيرِ،
(الإحياء للغزالي:٣/ ٥٤) (الإفصاح لابن هبيرة:٦/ ٣٩٤).

١- فتُستَرَطَ: تُبلَعَ. (مقاييس اللغة لابن فارس:٣/ ١٥٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)

قال الجاحِظُ-رحمه الله-: " فالإفراطُ في الجُودِ يُوجِبُ التَّبْذيرَ، والإفراطُ في التَّواضُعِ يوجِبُ المذَلَّةَ، والإفراطُ في الكِبرِ يدعو إلى مَقتِ الخاصَّةِ، والإفراطُ في المؤانَسةِ يدعو خُلطاءَ السُّوءِ، والإفراطُ في الانقباضِ يُوحِشُ ذا النَّصيحةِ ". (الرسائل للجاحظ:١/ ١١١).

٧- إعطاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، فمدارُ الشَّرعِ على التَّوسُّطِ في جميعِ الأمورِ؛ رُوِي عن الحَسَنِ البصريِّ- رحمه الله- قال:" إنَّ دينَ اللَّهِ وُضِع دونَ الغُلُوِّ وفوقَ التَّقصيرِ ". (نوادر الأصول للحكيم الترمذي:١/ ٢٦٠).

٨- دفعُ اليأسِ بالتَّوسُّطِ بَيْنَ الخوفِ والرَّجاءِ.

٩- عدَمُ التَّنافُسِ في الدُّنيا.

١٠- السَّلامةُ من الإفراطِ المؤدِّي إلى المَلالِ. (فتح الباري لابن حجر:١/ ٩٤).

١١- تجنُّبُ المشَقَّةِ المُفضيةِ إلى السَّآمةِ وتَركِ العَمَلِ والفُتورِ والانقِطاعِ.

١٢- تقومُ مصالحُ الدُّنيا والآخرةِ على الاعتِدالِ والتَّوسُّطِ؛ فإنَّ السَّرَفَ في كُلِّ شيءٍ مُضِرٌّ بالجسَدِ ومُضِرٌّ بالمعيشةِ، ويؤدِّي إلى الإتلافِ، فيَضُرُّ بالنَّفسِ. (سبل السلام للصنعاني:٢/ ٦٢٦).

قال ابنُ القَيِّمِ-رحمه الله-: " فالنَّومُ والسَّهرُ والأكلُ والشُّربُ والجِماعُ وغيرُ ذلك، إذا كانت وسَطًا بَيْنَ الطَّرَفَينِ المذمومينِ كانت عَدلًا، وإن انحرَفَت إلى أحَدِهما كانت نقصًا وأثمَرَت نقصًا ".
(الفوائد لابن القيم ص: ١٤١).

١٣- سَبَبٌ من أسبابِ محبَّةِ اللَّهِ تعالى.

١٤- حصولُ العَدلِ؛ فإنَّ المَيلَ إلى أحَدِ الطَّرَفَينِ يؤدِّي إلى الظُّلمِ، واللَّهُ لا يحِبُّ الظَّالِمين.

١٥- الوفاءُ بالحُقوقِ كُلِها دونَ الإخلالِ بأيٍّ من الحُقوقِ.

١٦- الإصابةُ في الأقوالِ والأعمالِ.

١٧- الإنصافُ وإنزالُ النَّاسِ مَنازِلَهم.

٣- فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين[١]:

أولًا: فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين من القرآن الكريم:

الإعراضُ عن السُّفَهاءِ والجاهِلينَ من الآدابِ الجليلةِ والأخلاقِ النَّبيلةِ التي حَثَّ عليها القرآنُ الكريمُ وأمَرَ بها، والمسلِمُ يحتاجُ إلى هذا الخُلُقِ الكريمِ دائمًا، فيترفَّعُ بأخلاقِه عن مجاراةِ السُّفَهاءِ، والرَّدِّ على الجُهَلاءِ، بل يُعرِضُ ويُنَزِّهُ نفسَه عن مساواةِ الجَهَلةِ والحَمقى من النَّاسِ.

١- قال تعالى حاثًّا نبيَّه ﷺ على الإعراضِ عن الجاهِلينَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

قال الزَّمَخشريُّ-رحمه الله-: " وقوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: أي لا تكافِئِ السُّفَهاءَ بمِثلِ سَفَهِهم، ولا تُمارِهم، واحلُمْ عنهم، وأَغْضِ على ما يَسوؤك منهم ". (الكشاف:٢/ ١٩٠).

وقال القُرطبيُّ-رحمه الله-: " وفي قولِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التَّخَلُّقِ بالحِلمِ، والإعراضُ عن أهلِ الظُّلمِ، والتَّنَزُّهُ عن منازعةِ السُّفَهاءِ، ومُساواةِ الجَهَلةِ الأغبياءِ، وغيرُ ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ والأفعالِ الرَّشيدةِ ". (الجامع لأحكام القرآن:٧/ ٣٤٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ-رحمه الله-: " وهذه الآيةُ فيها جماعُ الأخلاقِ الكريمةِ؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاسِ إمَّا أن يفعَلوا معه غيرَ ما يحِبُّ، أو ما يَكرَهُ، فأُمِرَ أن يأخُذَ منهم ما يحِبُّ ما سَمَحوا به، ولا يُطالِبَهم بزيادةٍ، وإذا فعَلوا معه ما يَكرَهُ أعرَض عنهم، وأمَّا هو فيأمُرُهم بالمعروفِ ". (مجموع الفتاوي:٣٠/٣٧٠).

وقال ابنُ القَيِّمِ-رحمه الله-: " فلو أخذَ النَّاسُ كُلُّهم بهذه الآيةِ لكَفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإنَّ العفوَ ما عفا من أخلاقِهم وسمَحَت به طبائِعُهم، ووَسِعَهم بَذلُه من أموالِهم وأخلاقِهم، فهذا ما منهم إليه، وأمَّا ما يكونُ منه إليهم فأمْرُهم بالمعروفِ، وهو ما تَشهَدُ به العقولُ وتَعرِفُ حُسنَه، وهو ما أمَرَ اللهُ به، وأمَّا ما يتَّقي به أذى جاهِلِهم فالإعراضُ عنه وترْكُ الانتقامِ لنَفسِه والانتصارِ لها، فأيُّ كمالٍ للعبدِ وراءَ هذا؟ وأيُّ مُعاشَرةٍ وسياسةٍ لهذا العالَمِ أحسَنُ من هذه المعاشَرةِ والسِّياسةِ؟ فلو فكَّر الرَّجُلُ في كُلِّ شَرٍّ يَلحَقُه من العالَمِ-أعني الشَّرَّ الحقيقيَّ الذي لا يوجِبُ له الرِّفعةَ والزُّلفى من اللهِ- وجَدَ سَبَبَه الإخلالَ بهذه الثَّلاثِ أو بعضِها ". (الرسالة التبوكية ص: ٧٦).

٢- وقال تعالى في مَدحِ عبادِه لاتِّصافِهم بالحِلمِ والإعراضِ عن الجاهِلينَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

أي: وإذا خاطَب السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونه، أجابوهم بقولٍ سَدادٍ وصوابٍ، ويَعْفون عنهم ويَصفَحون؛ فيَسْلَمون من الإثمِ، ومن مُقابلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم. (التفسير المحرر: ٢٠/٣١٦).

١- موسوعة الأخلاق والسلوك- الدرر السنية.

٣- وقال تعالى في وَصفِ عبادِه المؤمِنين: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (القصص: ٥٤).

قال السَّعديُّ -رحمه الله-: " ومِن خصالِهم الفاضِلةِ التي من آثارِ إيمانِهم الصَّحيحِ: أنَّهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: دَأْبُهم وطريقتُهم الإحسانُ لكُلِّ أحَدٍ حتى للمُسيءِ إليهم بالقولِ والفعلِ، يقابِلونه بالقولِ الحميدِ والفِعلِ الجميلِ؛ لعِلمِهم بفضيلةِ هذا الخُلُقِ العظيمِ، وأنَّه لا يوفَّقُ له إلَّا ذو حظٍّ عظيمٍ ".
(تيسير الكريم الرحمن ص: ٦٢٠).

٤- وقال تعالى واصِفًا عبادَه المُحسِنين بالتَّجاوُزِ والعَفوِ عن النَّاسِ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

قال ابنُ كثيرٍ -رحمه الله-: " فقَولُه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: لا يُعمِلون غَضَبَهم في النَّاسِ، بل يَكفُّون عنهم شَرَّهم، ويحتَسِبون ذلك عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ثمَّ قال تعالى: وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ أي: مع كفِّ الشَّرِّ يَعْفون عمَّن ظلَمَهم في أنفُسِهم، فلا يبقى في أنفُسِهم مَوجِدةٌ على أحَدٍ، وهذا أكمَلُ الأحوالِ؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا من مقاماتِ الإحسانِ ". (تفسير القرآن العظيم:٢/ ١٢٢).

٥- وقال تعالى نادِبًا إلى مقابلةِ الإساءةِ بالإحسانِ والجَهالةِ بالحِلمِ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

قال الواحِديُّ -رحمه الله-: " المعنى: ﴿ولا تَستوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ﴾، يعني: الصَّبرَ والغَضَبَ، والحِلمَ والجَهلَ، والعَفوَ والإساءةَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ كدَفعِ الغَضَبِ بالصَّبرِ، والإساءةِ بالعَفوِ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أي: فإذا فعَلْتَ ذلك ودفَعْتَ السَّيِّئةَ بالتي هي أحسَنُ، صار الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كالصَّديقِ القريبِ". (التفسير الوسيط:٤/ ٣٥).

٦- قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)

قال ابنُ جريرٍ الطَّبَريُّ -رحمه الله-: " إنَّ اللهَ أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحَهم بأنَّهم إذا مرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العَرَبِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطِلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ؛ فسَبُّ الإنسانِ الإنسانَ بالباطِلِ الذي لا حقيقةَ له: مِنَ اللَّغوِ... وسماعُ الغناءِ ممَّا هو مُستقبَحٌ في أهلِ الدِّينِ، فكُلُّ ذلك يدخُلُ في معنى اللَّغوِ... فتأويلُ الكلامِ: وإذا مرُّوا بالباطِلِ فسَمِعوه أو رأَوه مرُّوا كرامًا. مُرورُهم كِرامًا في بعضِ ذلك بألَّا يَسمَعوه، وذلك كالغِناءِ، وفي بعضِ ذلك بأن يُعرِضوا عنه ويَصفَحوا، وذلك إذا أُوذوا بإسماعِ القبيحِ من القولِ، وفي بعضِه بأن يَنْهوا عن ذلك...". (جامع البيان للطبري:١٧/ ٥٢٦).

٧- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥)

قولُه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يُخالِطون أهلَه ولا يُعاشِرونَهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: إذا سَفِه عليهم سَفيهٌ، وكَلَّمهم بما لا يليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرَضوا عنه ولم يُقابِلوه بمِثلِه من الكلامِ القبيحِ، ولا يَصدُرُ عنهم إلَّا كلامٌ طيِّبٌ؛ ولهذا قال عنهم: إنَّهم قالوا: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: لا نريدُ طريقَ الجاهِلينَ ولا نحِبُّها ".

(تفسير ابن كثير:٦/ ٢٤٥).

ثانياً: فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين من السنة المباركة:

١- أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: " اتَّقِ اللهَ حيثما كُنتَ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمحُها، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ ".

(صحيح سنن الترمذي:١٩٨٧) (وحسَّنه لغيرِه شُعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد:٣٥/ ٢٨٤).

قال القاري-رحمه الله-: وقوله ﷺ: " وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ ": " وهو بَسطُ المحَيَّا، وبَذلُ النَّدى، وتحمُّلُ الأذى ". (مرقاة المفاتيح:٨/ ٣١٧٨).

وقال السَّعديُّ-رحمه الله-: " وأوَّلُ الخُلُقِ الحَسَنِ: أن تكُفَّ عنهم أذاك من كُلِّ وَجهٍ، وتعفوَ عن مساوِئِهم وأذيَّتِهم لك، ثمَّ تعامِلَهم بالإحسانِ القوليِّ والإحسانِ الفِعليِّ، وأخَصُّ ما يكونُ بالخُلُقِ الحَسَنِ: سَعةُ الحِلمِ على النَّاسِ، والصَّبرُ عليهم، وعدَمُ الضَّجَرِ منهم، وبشاشةُ الوَجهِ، ولُطفُ الكلامِ، والقَولُ الجميلُ المُؤنِسُ للجَليسِ، المُدخِلُ عليه السُّرورَ، المُزيلُ لوَحشتِه ومَشقَّةِ حِشمتِه، وقد يحسُنُ المزحُ أحيانًا إذا كان فيه مصلحةٌ، لكِنْ لا ينبغي الإكثارُ منه، وإنَّما المزحُ في الكلامِ كالمِلحِ في الطَّعامِ، إن عَدِمَ أو زاد على الحَدِّ فهو مذمومٌ. **ومن الخُلُقِ الحَسَنِ:** أن تُعامِلَ كُلَّ أحدٍ بما يليقُ به، ويناسِبُ حالَه من صغيرٍ وكبيرٍ، وعاقِلٍ وأحمَقَ، وعالِمٍ وجاهِلٍ، فمَن اتَّقى اللهَ، وحقَّق تقواه، وخالَقَ النَّاسَ على اختِلافِ طبَقاتِهم بالخُلُقِ الحَسَنِ؛ فقد حاز الخيرَ كُلَّه؛ لأنَّه قام بحَقِّ اللهِ وحقوقِ العبادِ، ولأنَّه كان من المُحسِنين في عبادةِ اللهِ، المحسِنين إلى عبادِ اللهِ ". (بهجة قلوب الأبرار ص: ٥١).

٢- أخرج الترمذي والطبراني في" مكارم الأخلاق" من حديث جابرٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: " إنَّ من أحَبِّكم إليَّ وأقرَبِكم منِّي مجلِسًا يومَ القيامةِ أحاسِنَكم أخلاقًا ". (صحيح سنن الترمذي:٢٠١٨)

قال ابنُ دقيقِ العيدِ-رحمه الله-: " حُسنُ الخُلُقِ مِن صفاتِ النَّبيِّين والمُرسَلين وخيارِ المُؤمنين؛ لا يَجزُون بالسَّيِّئةِ، بل يَعفون ويَصفَحون، ويُحسِنون مع الإساءةِ إليهم ". (شرح الأربعين النووية ص: ٧٤).

٣- وأخرج الإمام مسلم من حديث عائشةَ -رضي الله عنها- أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: " يا عائِشةُ! إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، وما لا يُعطي على ما سِواه ".

قال ابنُ عُثَيمين-رحمه الله-: " الرِّفقُ محبوبٌ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، وإنَّه ما كان في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا نُزِع مِن شيءٍ إلَّا شانَه؛ ففيه الحثُّ على أن يكونَ الإنسانُ رفيقًا في جميعِ شُؤونِه، رفيقًا في معاملةِ أهلِه، وفي معاملةِ إخوانِه، وفي معاملةِ أصدقائِه، وفي معاملةِ عامَّةِ النَّاسِ، يَرفُقُ بهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ؛ ولهذا فإنَّ الإنسانَ إذا عامَل النَّاسَ بالرِّفقِ يجِدُ لذَّةً وانشِراحًا، وإذا عامَلَهم بالشِّدَّةِ والعُنفِ نَدِم، ثمَّ قال: ليتَني لم أفعَلْ، لكِنْ بَعدَ أن يفوتَ الأوانُ، أمَّا إذا عامَلَهم بالرِّفقِ واللِّينِ والأناةِ انشَرَح صدرُه، ولم يَندَمْ على شيءٍ فَعَلَه ". (شرح رياض الصالحين:٣/ ٥٧٨).

٤- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: " ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملِكُ نَفسَه عندَ الغَضَبِ ".

قال ابنُ بَطَّالٍ-رحمه الله-: " الصُّرَعةُ: الذي يَصرَعُ النَّاسَ ويَكثُرُ منه ذلك، كما يقالُ للكثيرِ النَّومِ: نُوَمةٌ، وللكثيرِ الحِفظِ: حُفَظةٌ، فأراد عليه السَّلامُ أنَّ الذي يقوى على مَلْكِ نفسِه عند الغَضَبِ ويَرُدُّها عنه هو القَويُّ الشَّديدُ والنِّهايةُ في الشِّدَّةِ؛ لغَلَبتِه هواه المُرْدي الذي زَيَّنه له الشَّيطانُ المُغْوي، فدَلَّ هذا أنَّ مجاهدةَ النَّفسِ أشَدُّ من مجاهَدةِ العَدُوِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ جَعَل للذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضَبِ من القُوَّةِ والشِّدَّةِ ما ليس للذي يغلِبُ النَّاسَ ويَصرَعُهم ". (شرح صحيح البخاري:٩/ ٢٩٦).

٥- وأخرج الإمام أحمد ابن ماجه والترمذي من حديث ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عنهما- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: " المؤمِنُ الذي يخالِطُ النَّاسَ ويَصبِرُ على أذاهم أعظَمُ أجرًا من المؤمنِ الذي لا يخالِطُ النَّاسَ ولا يَصبِرُ على أذاهم ". (صحيح سنن ابن ماجه:٤٠٣٢) (صحيح سنن الترمذي: ٢٥٠٧).

قال ابنُ عُثَيمين-رحمه الله-: " يخالِطُهم" يعني: يذهَبُ معهم، ويجيءُ معهم، ويجلِسُ إليهم، ويتكَلَّمُ معهم، وضِدُّه مَن لا يخالِطُ النَّاسَ، وهو المعتَزِلُ للنَّاسِ، يقولُ ﷺ: " ويصبِرُ على أذاهم"؛ لأنَّ الإنسانَ الذي يخالِطُ النَّاسَ لا بُدَّ له من أذيَّةٍ، لا بُدَّ أن يسمَعَ كلامًا يُؤذيه، لا بُدَّ أن يرى فِعلًا يُؤذيه، لا بُدَّ أن يُهانَ، المُهِمُّ هذا شيءٌ معروفٌ، لكن يصبِرُ على أذاهم ويصابِرُ، ويقولُ: الذي لا يأتي اليومَ يأتي غدًا، ويستَحضِرُ دائمًا قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ (الأعراف: ١٩٩). هذه الآيةُ اجعَلْها دائمًا أمامَك في معاملةِ النَّاسِ لك خُذِ الْعَفْوَ أي: ما عفا وسَهُل فخُذْه، وما لا فلا تهتَمَّ به؛ ولهذا قال: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، كذلك يقولُ: " خيرٌ من المؤمِنِ الذي لا يخالِطُ النَّاسَ"، وعلى هذا فقولُه: " من الذي"، الذي صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: من المؤمِنِ، دليلُ ذلك وجودُها في الجملةِ الأولى: " الذي لا يخالِطُ النَّاسَ ولا يصبِرُ على أذاهم"، ثمَّ إنَّ المؤمنَ الذي يخالِطُ النَّاسَ يَعرِفُ النَّاسَ ويَعرِفُ أحوالَهم ويَعرِفُ ما أخطؤوا فيه، فيُحاوِلُ أن يُعَدِّلَه، ويَعرِفُ مشاكِلَ النَّاسِ، ويحاوِلُ أن يحُلَّها؛ فمُخالطةُ النَّاسِ فيها خيرٌ". (فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام:٦/٤٥٥).

ثالثاً: من أقوال السلف والعلماء في فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين:

١- *قال محمَّدُ بنُ عليٍّ-رحمه الله-:* " أدَّب اللهُ محمَّدًا ﷺ بأحسَنِ الآدابِ، فقال: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف: ١٩٩). (البيان والتبين للجاحظ:٢/ ٢٠).

٢- *قال عبدُ اللهِ بنُ شَدَّادٍ-رحمه الله- لابنِه:* " أيْ بُنَيَّ، وإن سَمِعْتَ كَلِمةً من حاسِدٍ، فكُنْ كأنَّك لستَ بالشَّاهِدِ؛ فإنَّك إن أمضَيتَها حيالَها رجَعَ العيبُ على مَن قالها، وكان يُقالُ: الأريبُ العاقِلُ هو الفَطِنُ المُتغافِلُ ". (الأمالي لأبي علي القالي:٢/٢٠٣).

٣- *وقال المُهَلَّبُ بنُ أبي صُفْرةَ-رحمه الله-:* " إذا سَمِع أحَدُكم العَوراءَ [1] فليتَطَأْطَأْ لها تَخَطَّاه ". (الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا ص: ١٩٢).

٤- *وقال مَكِّيُّ بنُ أبي طالِبٍ-رحمه الله-:* " في الإعراضِ عن الجاهِلينَ: الصَّبرُ، والحِلمُ، وتنزيهُ النَّفسِ عن مخالَطةِ السَّفيهِ ومُنازعةِ اللَّجُوجِ، وغيرُ ذلك من الأفعالِ المَرْضِيَّةِ ". (الهداية:٤/ ٢٦٨٨).

٥- *وقال بَعضُ العُلَماءِ:* " النَّاسُ رَجُلانِ: فرَجُلٌ مُحسِنٌ؛ فخُذْ ما عفا لك من إحسانِه، ولا تُكَلِّفْه فوقَ طاقتِه ولا ما يُحرِجُه، وإمَّا مُسيءٌ فمُرْه بالمعروفِ، فإنْ تمادى على ضلالِه، واستعصى عليك، واستمَرَّ في جَهلِه، فأعرِضْ عنه؛ فلعَلَّ ذلك أن يَرُدَّ كَيدَه ". (تفسير القرآن العظيم لابن كثير:٣/ ٥٣٢).

٦- *وقال بعضُ البُلَغاءِ:* " ما ذَبٌّ عن الأعراضِ كالصَّفحِ والإعراضِ ". (أدب الدنيا والدين للماوردي ص: ٢٥١).

ومن فضل وفوائد الإعراض عن الجاهلين كذلك:

١- التَّحَلِّي بهذا الخلق فيه امتثالٌ لأمرِ اللهِ تعالى.

٢- نيلُ محبَّةِ النَّاسِ واكتِسابُ حَمدِهم وثنائِهم.

٣- أنَّ التَّخَلُّقَ به تخلُّقٌ بأخلاقِ الأنبياءِ والصَّالِحين واقتداءٌ بهم.

٤- القُدرةُ على ضَبطِ النَّفسِ، وحَبسُ غَيظِها، ورَدُّها عن الانتقامِ.

٥- السَّلامةُ مِن تمادي الجاهِلينَ والسُّفَهاءِ في جهالتِهم وسَفَهِهم.

٦- كَفُّ شَرِّ عَدُوِّه، وانقلابُه صَديقًا، وتبَدُّلُ عداوتِه إلى محبَّةٍ.

٧- انشِراحُ الصَّدرِ.

٨- تنزيهُ النَّفسِ عن مخالَطةِ السَّفيهِ ومُنازعةِ اللَّجوجِ.

٩- اجتِماعُ القُلوبِ وائتِلافُها، وبُعدُها عن التَّنافُرِ.

١- العوراءُ: الكَلِمةُ القبيحةُ أو الفَعلةُ القبيحةُ. يُنظر: (الذخائر والعبقريات للبرقوقي:٢/ ١١٠).

٤- فضل وفوائد الأُلفة[1]:

أولًا: فضل وفوائد الأُلفة من القرآن الكريم:

وردَت عِدَّةُ آياتٍ في الحَثِّ على الأُلفةِ والتَّآلُف؛ منها:

١- قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فيه حَثٌّ على الأُلفةِ والاجتماعِ الذي هو نظامُ الإيمانِ واستقامةُ أمورِ العالَمِ.، واللهُ تعالى يأمُرُ بالأُلفةِ وينهى عن الفُرقةِ؛ لأنَّ الفُرقةَ هَلَكةٌ، والجماعةَ نجاةٌ.

(التفسير للراغب الأصفهاني:٢/ ٧٦٨) (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:٤/ ١٥٩).

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٥٩) هو تحذيرٌ مِن تفرُّقِ الكَلِمةِ، ودعاءٌ إلى الاجتماعِ والأُلفةِ على الدِّينِ. (أحكام القرآن للجصاص:٤/ ١٩٨).

٣- وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)، وقولُه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهيٌ عن المَهلِكِ مِن تَفَرُّقِ الأنحاءِ والمذاهِبِ، والخَيرُ كلُّه في الأُلفةِ واجتماعِ الكَلِمةِ. (المحرر الوجيز لابن عطية:٥/ ٢٩).

وقد بَعَث اللهُ الأنبياءَ كُلَّهم بإقامةِ الدِّينِ والأُلفةِ والجماعةِ، وتَرْكِ الفُرقةِ والمُخالفةِ. فالآيةُ فيها نهيٌ عن التَّفَرُّقِ في الدِّينِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ سَبَبٌ للهلاكِ، والاجتماعُ والأُلفةُ سَبَبٌ للنَّجاةِ.

(معالم التنزيل البغوي:٧/ ١٨٧).(البحر المحيط لأبي حيان:٩/ ٣٢٨).

٤- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ (الروم: ٣١،٣٢)

أي: فِرَقًا، فأمَرَهم اللهُ عزَّ وجَلَّ بالاجتماعِ والأُلفةِ ولُزومِ الجماعةِ. (معاني القرآن للزجاج:٤/ ١٨٦).

٥- وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران:١٠٣)

يمتَنُّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ بَينَهم الإحَنُ والعَداواتُ والحُروبُ المتواصِلةُ، فألَّف اللهُ بَينَ قلوبِهم بالإسلامِ، وقَذَف فيها المحبَّةَ، فتحابُّوا وتوافَقوا وصاروا إخوانًا مُتراحِمين مُتناصِحين مجتَمِعين على أمرٍ واحدٍ، قد نَظَم بَينَهم وأزال الاختِلافَ، وهو الأُخُوَّةُ في اللهِ.

(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري:١/ ٣٩٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

قال قَتادةُ –رحمه الله–: " الحَسَنةُ: الأُلفةُ والجماعةُ، والسَّيِّئةُ: الفُرقةُ والاختِلافُ ".

(زاد المسير لابن الجوزي:١/ ٣١٩).

١- موسوعة الأخلاق والسلوك- الدرر السنية.

٦- وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢،٦٣).

قَولُه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتَمَعوا وائتَلَفوا، وازدادت قوَّتُهم بسَبَبِ اجتماعِهم، ولم يكُنْ هذا بسَعيِ أحَدٍ، ولا بقُوَّةٍ غيرِ قُوَّةِ اللهِ، فلو أنفَقْتَ ما في الأرضِ جميعًا من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ وغيرِهما لتأليفِهم بَعدَ تلك النُّفرةِ والفُرقةِ الشَّديدةِ، ما ألَّفْتَ بَينَ قلوبِهم؛ لأنَّه لا يَقدِرُ على تقليبِ القُلوبِ إلَّا اللهُ تعالى، ولكِنَّ اللهَ ألَّف بَينَهم إنَّه عزيزٌ حكيمٌ، ومِن عِزَّتِه أنْ ألَّف بَينَ قلوبِهم، وجمَعَها بَعدَ الفُرقةِ ". (تيسير الكريم الرَّحمن للسعدي:١/٣٢٥).

ثانياً: فضل وفوائد الأُلفة من السنة المباركة:

١- *أخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ زَيدِ بنِ عاصِمٍ ﷺ قال:* " لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ قَسَّم في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصاب النَّاسَ، فخطَبَهم فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتُم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي؟".

بَيَّنَ النبي ﷺ في هذا الحديث أنَّ نِعمةَ الإيمانِ أعلى النِّعَمِ، ثمَّ أتبَعَ ذلك بنِعمةِ الأُلفةِ، وهي أعظَمُ من نعمةِ الأموالِ؛ إذ تُبذَلُ الأموالُ في تحصيلِها، وفيه الحَضُّ على طَلَبِ الهدايةِ والأُلفةِ.
(إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ص: ٢٦٣) (فتح الباري لابن حجر:٨/ ٥٢).

٢- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو- رَضِيَ اللهُ عنهما-:* أنَّ رَجُلًا سأل النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قال: " تُطعِمُ الطَّعامَ، وتقرَأُ السَّلامَ على من عرَفْتَ ومَن لم تَعرِفْ ".

وهذا حَضٌّ منه ﷺ على تأليفِ قُلوبِ المؤمنين، وأنَّ أفضَلَ أخلاقِهم الإسلاميَّةِ أُلفةُ بعضِهم بعضًا، وتحبُّبُهم وتوادُّهم، واستجلابُ ما يؤكِّدُ ذلك بَينَهم بالقولِ والفِعلِ. (إكمال المعلم للقاضي عياض:١/ ٢٧٦).

٣- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال:* " إنَّ المؤمنَ للمُؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا، وشَبَّك أصابِعَه ".

فيه الحَضُّ على تآلُفِ المُسلِمين، وتعاوُنِهم وتناصُرِهم، وتوادُدِهم وتراحُمِهم.
(إكمال المعلم للقاضي عياض:٨/ ٥٦).

٤- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللهُ عنهما- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:*
" المُسلِمُ أخو المُسلِمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فَرَّج عن مُسلِمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَر مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ ".
وفي الحديثِ حضٌّ على الأُلفةِ والتَّعاوُنِ وحُسنِ التَّعاشُرِ. (فتح الباري لابن حجر:٥/ ٩٧).

٥- *وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هُريرةَ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ قال:* " إنَّ اللهَ يَرضَى لكم ثَلاثًا ويَكرهُ لكم ثَلاثًا: فيَرضَى لكم أن تَعبُدوهُ، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأن تَعتَصِموا بحَبلِ اللهِ جَميعًا ولا تَفَرَّقوا، ويَكرَهُ لكم قيلَ وقال، وكَثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ ".

قَولُه: " ولا تَفَرَّقوا ": أمرٌ بالاجتماعِ والأُلفةِ، وهي إحدى دعائِمِ الشَّريعةِ، ونهيٌ عن الفُرقةِ والاختِلافِ.

(إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض:٥/ ٥٦٨).

٦- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال:* " اقرَؤوا القُرآنَ ما ائتَلَفَت قلوبُكم، فإذا اختلَفْتُم فقوموا عنه ".

في الحديث الحَضُّ على الجماعةِ والأُلفةِ، والتَّحذيرُ من الفُرقةِ والاختِلافِ.(فتح الباري لابن حجر:٩/ ١٠٢).

ثالثًا: فضل وفوائد الأُلفة من أقوال السلف والعلماء:

١- *قال ابنُ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللهُ عنهما-:* " إنَّ الرَّحِمَ تُقطَعُ، وإنَّ النِّعَمَ تُكفَرُ، ولم أرَ مِثلَ تقارُبِ القُلوبِ ".

(روضة العقلاء لابن حبان ص: ٦٤) (العزلة للخطابي ص: ٤٢).

٢- *وقال قَتادةُ-رحمه اللهُ-:* " أمَا واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو إنَّ الأُلفةَ لَرحمةٌ، وإنَّ الفُرقةَ لَعذابٌ ".

(جامع البيان لابن جرير الطبري:٥/ ٦٥٠).

٣- *قال خَيثَمةُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ-رحمه اللهُ-:* " شيءٌ هو أحلى من العَسَلِ ولا ينقَطِعُ: الأُلفةُ جعلها اللهُ بَينَ المُؤمِنين ". (سير السلف لقوام السنة ص: ٧٥١).

٤- *كتَبَ الأوزاعيُّ-رحمه اللهُ- إلى سُلَيمانَ بنِ مجالِدٍ:* " أمَّا بعدُ، فإنَّا وإنْ لم يكُنْ جمعَنا وإيَّاك تلاقٍ...، فإنَّ الأُلفةَ بحَمدِ اللهِ جامِعةٌ ". (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم:١/ ١٩٧).

٥- *قال عبدُ اللهِ بنُ خُبَيقٍ-رحمه اللهُ-:* " علامةُ الأُلفةِ قِلَّةُ الخِلافِ وبَذلُ المعروفِ ". (طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص: ١٢٣).

٦- *قال يونُسُ بنُ عبدِ الأعلى-رحمه اللهُ-:* " ما رأيتُ أحَدًا أعقَلَ من الشَّافعيِّ، لو جُمِعَت أُمَّةٌ فجُعِلَت في عَقلِ الشَّافِعيِّ لوَسِعَهم عقلُه؛ ناظَرْتُه يومًا في مسألةٍ ثمَّ افترَقْنا، ولَقِيَني فأخذ بيدي، ثمَّ قال لي: يا أبا موسى، ألَا يستقيمُ أن نكونَ إخوانًا وإن لم نتَّفِقْ في مسألةٍ؟ ". (تاريخ دمشق لابن عساكر:٥١/ ٣٠٢).

٧- *قال بعضُ الحُكَماءِ:* " كُلُّ إنسانٍ يأنَسُ إلى شَكلِه كما أنَّ كُلَّ طيرٍ يطيرُ مع جِنسِه ".

(الإحياء للغزالي:٢/ ١٦٢).

٨- **وقيل:** " مَن شَدَّد نَفَّر، ومَن لان تألَّف ". (نثر الدر لأبي سعد الآبي:٣/ ٥٤).

٩- *قال ابنُ تيميَّةَ-رحمه اللهُ-:* " وكان السَّلَفُ يَتناظَرون في المسألةِ مُناظَرةَ مُشاوَرةٍ ومُناصَحةٍ، وربَّما اختلَفَ قولُهم في المسألةِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ مع بقاءِ الأُلفةِ والعِصمةِ وأُخُوَّةِ الدِّينِ ". (مجموع الفتاوى:٢٤/ ١٧٢).

ومن فضل وفوائد الأُلفة كذلك:

١- أنها سَبَبٌ لمحبَّةِ اللهِ تعالى.

٣- داعيةٌ إلى تماسُكِ الأُمَّةِ وترابُطِها وقُوَّتِها.

٤- تجمَعُ الشَّملَ وتمنَعُ الذُّلَّ.

٥- أنَّها خيرٌ في العاقبةِ والآجِلةِ. (العقد الفريد لابن عبد ربه:٥/ ١١٨).

٦- حصولُ المودَّةِ بَينَ المُسلِمين.

٧- من أسبابِ التَّعاوُنِ والتَّناصُرِ والقُوَّةِ؛ قال الأبشيهيُّ:" والتَّآلُفُ سَبَبُ القُوَّةِ، والقُوَّةُ سَبَبُ التَّقوى، والتَّقوى حِصنٌ منيعٌ وركنٌ شديدٌ، بها يُمنَعُ الضَّيمُ، وتُنالُ الرَّغائِبُ، وتَنجَعُ المقاصِدُ ". (المستطرف ص: ١٣٠).

٨- من أسبابِ القُوَّةِ والنَّصرِ والتَّمكينِ، وقد حَثَّ رَجُلٌ بَنيه عندَ الموتِ على الأُلفةِ والاجتماعِ، وأحضَرَ سِهامًا محزومةً، فقال: أتكْسِرون هذه مجتَمِعةً؟ قالوا: لا، قال: فتكْسِرونها مُفترِقةً؟ قالوا: نعم، قال: فهكذا الجماعةُ. (التاريخ لابن خلدون:٣/ ٦٧).

ويُروى نحوُ ذلك عن عبدِ المَلِكِ بنِ مَروانَ أنَّه دعا بقِداحٍ بعِدَّةِ وَلَدِه حينَ حَضَرَتْه الوفاةُ، فأمَر بها فجُمِعَت ثمَّ دَفَعها إلى الوليدِ، فقال: اكسِرْها، فلم يَقدِرْ على ذلك، ثمَّ دُفِعَت إلى آخَرَ، ثمَّ آخَرَ، حتَّى استَقراهم جميعًا، فأعياهم كَسرُها، فأمَرَ بها ففُرِّقَت، ثمَّ دفَع إلى كلِّ واحدٍ منهم قَدَحًا وأمَرَه بكَسرِهِ ففَعَل، فقال: هكذا أنتم بَعدي، إنِ اجتمَعْتُم لم يُكسَرْ أحدٌ، وإن تفرَّقْتُم كُسِرْتُم. (التعازي للمبرد ص: ١٤٦).

٩- عِصمةٌ من الفَشَلِ والضَّعفِ النَّاتِجَين عن التَّنازُعِ والتَّفَرُّقِ.

١٠- إذا كان المرءُ آلِفًا مألوفًا انتصر بالأُلفةِ على أعاديه، وامتَنَع من حاسِديه. (أدب الدنيا والدين للماوردي ص: ١٤٦).

١١- امتثالُ ما أمَر اللهُ به ورسولُه من الاجتِماعِ والأُلفةِ.

١٢- سلامةُ الصُّدورِ من الشَّحناءِ والتَّباغُضِ والعَداوةِ.

١٣- سلامةُ البيوتِ من الشِّقاقِ والنِّزاعِ والخِلافاتِ، وتربيةُ النَّشْءِ في ظِلِّ حياةٍ مُستَقِرَّةٍ.

١٤- الشُّعورُ بالطُّمَأنينةِ والأمانِ وراحةِ البالِ.

٥- فضل الإيثار[١]:

أولًا: فضل الإيثار من القرآنِ الكريم

يُعَدُّ الإيثارُ من محاسِنِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ؛ فهو مرتبةٌ عاليةٌ من مراتِبِ البَذلِ، ومنزلةٌ عظيمةٌ من منازِلِ العطاءِ؛ لذا أثنى اللهُ على أصحابِه، ومدَحَ المتحَلِّين به، وبَيَّن أنَّهم المُفلِحون في الدُّنيا والآخرةِ.

١ – قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

قال الطَّبَريُّ –رحمه الله–: " يقولُ تعالى ذِكْرُه وهو يَصِفُ الأنصارَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ من قَبلِ المُهاجِرين... ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ يقولُ: ويُعطون المهاجِرين أموالَهم إيثارًا لهم بها على أنفُسِهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يقولُ: ولو كان بهم حاجةٌ وفاقةٌ إلى ما آثَروا به من أموالِهم على أنفُسِهم ". (جامع البيان:٢٢/٥٢٤).

وقال ابنُ كثيرٍ –رحمه الله–: " أي: يُقَدِّمون المحاويجَ على حاجةِ أنفُسِهم، ويَبدَؤون بالنَّاسِ قَبْلَهم في حالِ احتياجِهم إلى ذلك ". (تفسير القرآن العظيم:٨/٧٠).

ويقولُ ابنُ تيميَّةَ –رحمه الله–: " وأمَّا الإيثارُ مع الخصاصةِ فهو أكمَلُ من مجرَّدِ التَّصَدُّقِ مع المحبَّةِ؛ فإنَّه ليس كُلُّ متصَدِّقٍ محبًّا مُؤثِرًا، ولا كُلُّ مُتصَدِّقٍ يكونُ به خصاصةٌ، بل قد يتصَدَّقُ بما يحِبُّ مع اكتفائِه ببعضِه مع محبَّةٍ لا تبلُغُ به الخصاصةَ ". (منهاج السنة النبوية:٧/١٢٩).

٢ – وقال اللهُ تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢).

يعني: لن تنالوا وتُدرِكوا البِرَّ –الذي هو اسمٌ جامِعٌ للخيراتِ، وهو الطَّريقُ الموصِلُ إلى الجنَّةِ– حتَّى تُنفِقوا ممَّا تحبُّون من أطيَبِ أموالِكم وأزكاها؛ فإنَّ النَّفَقةَ من الطَّيِّبِ المحبوبِ للنُّفوسِ من أكبَرِ الأدِلَّةِ على سماحةِ النَّفسِ، واتِّصافِها بمكارِمِ الأخلاقِ، ورَحمتِها ورِقَّتِها، ومن أدَلِّ الدَّلائِلِ على محبَّةِ اللهِ، وتقديمِ محبَّتِه على محبَّةِ الأموالِ التي جُبِلت النُّفوسُ على قُوَّةِ التَّعَلُّقِ بها؛ فمَن آثَرَ محبَّةَ اللهِ على محبَّةِ نَفسِه فقد بلَغ الذِّروةَ العُليا من الكَمالِ، وكذلك مَن أنفَقَ الطَّيِّباتِ، وأحسنَ إلى عبادِ اللهِ، أحسَنَ اللهُ إليه ووفَّقه أعمالًا وأخلاقًا لا تحصُلُ بدونِ هذه الحالةِ. (تيسير الكريم الرحمن:١/٩٧٠).

١ـ موسوعة الأخلاق والسلوك- الدرر السنية.

٣- وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

قال أبو حيَّانَ-رحمه الله-: " والمعنى: أنَّه يُعطي المالَ مُحِبًّا له، أي: في حالِ محبَّتِه للمالِ واختيارِه وإيثارِه، وهذا وَصفٌ عظيمٌ؛ أن تكونَ نَفسُ الإنسانِ متعَلِّقةً بشَيءٍ تعَلُّقَ المحِبِّ بمحبوبِه، ثمَّ يُؤثِرَ به غيرَه ابتغاءَ وَجهِ اللهِ ". (البحر المحيط في التفسير:٢/ ١٣٥).

٤- وقال تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان:٦-٩)

قَولُه: عَلَى حُبِّهِ قال ابنُ عَبَّاسٍ وجمهورُ المُفَسِّرين: الضَّميرُ للطَّعامِ، أي: على حُبِّ الطَّعامِ، وشَهْوَتِهم إيَّاه، وحاجتِهم إليه، كما قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران: ٩٢).

(رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز للرسعني:٨/ ٤٠٧).

وممَّا يدُلُّ على هذا المعنى أيضًا قولُه تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)

(أضواء البيان للشنقيطي:٨/٣٩٤).

قال الزَّجَّاجُ-رحمه الله-: " المعنى: يُطعِمون الطَّعامَ أشَدَّ ما تكونُ حاجتُهم إليه للمِسكينِ، ووَصَفَهم اللهُ بالأَثَرةِ على أنفُسِهم ". (معاني القرآن وإعرابه:٥/ ٢٥٩).. **ثمَّ قال اللهُ تبارك وتعالى:** ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٢،١٣).

والمعنى: وجزاهم بصَبْرِهم على الإيثارِ وما يؤدِّي إليه من الجُوعِ والعُريِ بُستانًا فيه مأكَلٌ هَنيءٌ، وحريرًا فيه مَلبَسٌ بَهِيٌّ. (مفاتيح الغيب للفخر الرازي:٣٠/٢١٨).

ثانياً: فضل الإيثار من السُّنَّة النَّبَويَّة المباركة:

لَمَّا كان الإيثارُ من الأخلاقِ النَّبيلةِ، والصِّفاتِ الحميدةِ؛ رَغَّبَت السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ فيه، وأثنَت على أصحابِه، وممَّا ورد في ذلك:

١- *أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعَرِيِّ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:* " إنَّ الأشعَرِيِّين إذا أرمَلوا [1] في الغَزْوِ، أو قَلَّ طَعامُ عيالِهم بالمدينةِ، جَمَعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ اقتَسَموه بَيْنَهم في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّةِ؛ فهم مِنِّي، وأنا منهم ".

يقولُ العينيُّ–رحمه الله–: " فيه مَنقَبَةٌ عظيمةٌ للأشعَرِيِّين من إيثارِهم ومواساتِهم بشَهادةِ سَيِّدنا رسولِ اللهِ، وأعظَمُ ما شُرِّفوا به كونُه أضافهم إليه... وفيه فضيلةُ الإيثارِ والمواساةِ ". (عمدة القاري للعيني:١٣/٤٤).

وقال القُرطبيُّ–رحمه الله–: " هذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّ الغالِبَ على الأشعَرِيِّين الإيثارُ والمواساةُ عِندَ الحاجةِ... فثبت لهم بشهادةِ رَسولِ اللهِ ﷺ أنَّهم...كُرَماءُ مُؤثِرون ". (المفهم للقرطبي:٦/٤٥٢).

٢- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:* " طعامُ الاثنَينِ كافي الثَّلاثةِ، وطعامُ الثَّلاثةِ كافي الأربعةِ ".

وفي لفظٍ:" طعامُ الواحِدِ يكفي الاثنَينِ، وطعامُ الاثنَينِ يكفي الأربعةَ، وطعامُ الأربعةِ يكفي الثَّمانيةَ ".

(أخرجه مسلم من حديث جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ– رَضِيَ اللهُ عنهما–)

قال المُهَلَّبُ–رحمه الله–: " والمرادُ بهذه الأحاديثِ الحَضُّ على المُكارَمةِ في الأكلِ والمواساةِ والإيثارِ على النَّفسِ، الذي مدَح اللهُ به أصحابَ نَبيِّه، **فقال تعالى:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩). ولا يرادُ بها معنى التَّساوي في الأكلِ والتَّشاحِّ؛ لأنَّ قولَه عليه السَّلامُ:" كافي الثَّلاثةِ" دليلٌ على الأثَرَةِ التي كانوا يمتَدِحون بها والتَّقنُّعِ بالكفايةِ، وقد همَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ في سنةِ مجاعةٍ أن يجعَلَ مع كُلِّ أهلِ بَيتٍ مِثْلَهم، وقال: لن يَهلِكَ أحَدٌ عن نِصْفِ قُوتِه ". (شرح صحيح البخاري لابن بطال:٩/٤٧١).

٣- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال:* " جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ أجرًا؟ قال: أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تمهلْ حتَّى إذا بلَغَتِ الحُلقومَ [2] قُلتَ: لفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، وقد كان لفُلانٍ!".

قال ابنُ بَطَّالٍ–رحمه الله–: " فيه أنَّ أعمالَ البِرِّ كُلَّما صَعُبت كان أجرُها أعظَمَ؛ لأنَّ الصَّحيحَ الشَّحيحَ إذا خَشِيَ الفَقرَ وأمَلَ الغِنى، صَعُبَت عليه النَّفَقةُ، وسوَّل له الشَّيطانُ طُولَ العُمُرِ، وحُلولَ الفَقرِ به، فمَن تصَدَّقَ في هذه الحالِ فهو مُؤثِرٌ لثوابِ اللهِ على هوى نَفسِه، وأمَّا إذا تصَدَّق عندَ خُروجِ نَفْسِه، فيُخشى عليه الضِّرارُ بميراثِه، والجَورُ في فِعْلِه ". (شرح صحيح البخاري:٣/٤١٧).

والحاصِلُ: أنَّ العَمَلَ تفاضَلَ بمقدارِ ما دَلَّ عليه من إيثارِ العامِلِ نَفْعَ غيرِه وإرضاءَ رَبِّه على منفعةِ نفسِه.
(النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح لابن عاشور ص: ٤٢).

١- أرمَلَ القَومُ: نَفِدَ زادُهم. (لسان العرب لابن منظور:١١/٢٩٦).
٢- إذا بلَغَت نفسُ أحَدِكم الحُلقومَ عِندَ النَّزعِ، والحُلقومُ: مَجرى النَّفَسِ والسُّعالِ من الجَوفِ. (لسان العرب لابن منظور:١٢/١٥٠).

٤- *وأخرج الإمام أحمد وأبو داود من جابرٍ ﷺ حَدَّث عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه أراد أن يغزوَ فقال:* " يا مَعشَرَ المهاجِرين والأنصارِ إنَّ من إخوانِكم قومًا ليس لهم مالٌ ولا عشيرةٌ، فليَضُمَّ أحَدُكم إليه الرَّجُلَين أو الثَّلاثةَ، فما لأحَدِنا من ظَهرٍ يحمِلُه إلَّا عُقْبةٌ [1] كعُقْبةِ أحَدِهم، فضَمَمْتُ إليَّ اثنينِ أو ثلاثةً، قال: ما لي إلَّا عُقْبةٌ كعُقْبةِ أحَدِهم من جَمَلي ". (صحيح سنن أبي داود:٢٥٣٤)

قال الرَّمليُّ-رحمه الله-: " هذا من بابِ المواساةِ والرِّفقِ بالمُشاةِ؛ فإذا كان مع الغُزاةِ أو المُسافرين في غيرِ الغَزْوِ مُشاةٌ كثيرون، فينبغي للجماعةِ أن يتوَزَّعوهم، ويأخُذَ كُلُّ واحدٍ منهم رَجُلين أو ثلاثةً يَضُمُّهم إليه، يتعاقَبون في الرُّكوبِ على الدَّابَّةِ، يركَبُ كُلُّ واحدٍ منهم مرَّةً؛ ليرتَفِقَ بعضُهم ببعضٍ على حَسَبِ ما يحتَمِلُ الحالُ ". (شرح سنن أبي داود:١١/ ١٦٨).

وأخرج البخاري من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: " أنَّ رَجُلًا أتَى النَّبيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إلى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ: ما معنَا إلَّا المَاءُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: مَن يَضُمُّ -أوْ يُضِيفُ- هذا؟ فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ: أنَا، فَانْطَلَقَ به إلى امْرَأَتِهِ، فَقالَ: أكْرِمِي ضَيْفَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَتْ: ما عِنْدَنَا إلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، ونَوِّمِي صِبْيَانَكِ إذَا أرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، ونَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فأطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أنَّهُما يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أصْبَحَ غَدَا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ -أوْ عَجِبَ- مِن فَعَالِكُما. فأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)

وعند ابن حبان في صحيحه بلفظ: " جاء رجُلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: إنِّي مجهودٌ [2]، فأرسَل إلى بعضِ نسائِه فقالت: والَّذي بعَثك بالحقِّ نبيًّا ما عندي إلَّا ماءٌ، ثمَّ أرسَل إلى أخرى فقالت مِثْلَ ذلك، حتَّى قُلْنَ كلُّهنَّ مِثْلَ ذلك، فقال:" مَن يُضيِّفُ هذا اللَّيلةَ رحِمه اللهُ "، فقام رجُلٌ مِن الأنصارِ فقال: أنا يا رسولَ اللهِ، فانطلَق به إلى رَحْلِه فقال لامرأتِه: هل عندكِ شيءٌ؟ قالت: لا. إلَّا قوتَ صبياني، قال: فعَلِّليهم بشيءٍ فإذا دخَل ضيفُنا فأضيئي السِّراجَ وأريه أنَّا نأكُل، فإذا أهوى ليأكُلَ قومي إلى السِّراجِ حتَّى تُطفئيه، قال: فقعَدوا وأكَل الضَّيفُ، فلمَّا أصبَح غدا على النَّبيِّ ﷺ فقال:" لقد عجِب اللهُ من صنيعِكما اللَّيلةَ ".

١- العقبة: النوبة (لسان العرب لابن منظور:١/٦١٨).
٢- مجهود: أي أصابني الجهد من الجوع.

٥- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ الرَّحمن بنِ أبي بكرٍ- رَضِيَ اللهُ عنهما- أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا أناسًا فُقَراءَ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:* " مَن كان عندَه طعامُ اثنين فليذهَبْ بثالثٍ، وإنْ أربَعٌ فخامِسٌ أو سادِسٌ ".

قال ابنُ المُلَقِّنِ-رحمه اللهُ-: " فيه فضيلةُ الإيثارِ والمواساةِ، وأنَّه عِندَ كَثرةِ الأضيافِ يُوَزِّعُهم الإمامُ على أهلِ المحلَّةِ، ويُعطي لكُلٍّ منهم ما يَعلَمُ أنَّه يحتَمِلُه، ويأخُذُ هو ما يُمكِنُه ".

(التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن:٦/٢٩٧).

٦- *وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي قتادةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ:* " إنَّ ساقي القومِ آخرُهم شُربًا "

قال ابنُ العربي-رحمه اللهُ-: " هذا أمرٌ ثابتٌ عادةً وشرعًا، والحكمةُ فيه استحبابُ الإيثارِ ".

(عارضة الأحوذي:٨/٧٩).

وقال ابنُ الجوزي-رحمه اللهُ-: " إنَّما كان ذلك لمعنيينِ: أحدهما: أنَّه قد تفضَّل بإيثارِهم على نفسِه، فينبغي أنْ يُتمِّمَ. والثاني: أنَّه إذا شرِب وقد بقِي أحدٌ اتُّهِم بتناولِ الصافي، وتركِ الكدرِ ".

(كشف المشكل من حديث الصحيحين:٢/ ١٥٥).

ثالثاً: فضل الإيثار من أقوالِ السَّلَفِ والعلَماءِ:

١- *وقال أبو سُلَيمانَ الدَّارنيُّ-رحمه اللهُ-:* " لو أنَّ الدُّنيا كُلَّها لي فجعَلْتُها في فمِ أخٍ من إخواني، لاستقلَلْتُها له!". **(إحياء علوم الدين للغزالي:٢/١٧٤).**

- *وقال أيضًا:* " إنِّي لأُلقِمُ اللُّقمةَ أخًا من إخواني فأجِدُ طَعْمَها في حَلْقي!). **(المصدر السابق).**

٢- *وقال السُّهْرَوَرْديُّ-رحمه اللهُ-:* " الإيثارُ هو أن يُقَدِّمَ حُظوظَ الإخوانِ على حظوظِه في أمرِ الدُّنيا ".

(عوارف المعارف للسهروردي:٢/٧٦).

٣- *وقال يوسُفُ بنُ الحُسَينِ-رحمه اللهُ-:* " من رأى لنَفسِه مِلكًا لا يَصِحُّ منها الإيثارُ؛ لأنَّه يرى نفسَه أحَقَّ بالشَّيءِ برؤيةِ مِلكِه، إنَّما الإيثارُ ممَّن يرى الأشياءَ كُلَّها للحَقِّ، فمَن وَصَل إليه فهو أحَقُّ به؛ فإذا وصَل شَيءٌ من ذلك إليه يرى نفسَه ويَدُه فيه يدُ أمانةٍ، يُوصِلُها إلى صاحِبِها أو يؤدِّيها إليه!".

(المصدر السابق).

٤- *وقال الجُرْجانيُّ-رحمه اللهُ-:* " الإيثارُ... هو النِّهايةُ في الأُخُوَّةِ ". **(التعريفات للجرجاني:١/٥٩).**

٥- *قال أحدُهم:* " لا تواكِلَنَّ جائعًا إلَّا بالإيثارِ، ولا تُواكِلَنَّ غَنيًّا إلَّا بالأدَبِ، ولا تواكِلَنَّ ضيفًا إلَّا بالنَّهْمةِ [1] والانبِساطِ ". **(الآداب الشرعية لابن مفلح:٣/٥٥٧).**

٦- *وقال بعضُهم:* " الإيثارُ لا يكونُ عن اختيارٍ، إنَّما الإيثارُ أن تُقَدِّمَ حُقوقَ الخَلقِ أجمَعَ على حَقِّك، ولا تميِّزَ في ذلك بَينَ أخٍ وصاحِبٍ ذي مَعرِفةٍ ". **(عوارف المعارف للسهروردي:٢/٧٦).**

١- نَهِمَ في الطَّعامِ: إذا كان لا يَشبَعُ، والنَّهَامةُ: إفراطُ الشَّهوةِ في الطَّعامِ. يُنظر: (لسان العرب لابن منظور:١٢/٥٩٣).

للإيثارِ فضائل وفوائِدُ عَظيمةٌ وثمارٌ جليلةٌ يجنيها أصحابُ هذا الخُلُقِ العظيمِ؛ منها:

١- دُخولُهم فيمن أثنى اللهُ عليهم من أهلِ الإيثارِ، وجَعَلهم من المُفلِحين.

٢- الإيثارُ طريقٌ إلى محبَّةِ اللهِ تبارك وتعالى.

٣- تحقيقُ الكمالِ الإيمانيِّ؛ فالإيثارُ دليلٌ عليه، وثَمَرةٌ من ثمارِه.

٤- التَّحَلِّي بخُلُقِ الإيثارِ فيه اقتداءٌ بالنَّبيِّ ﷺ.

٥- أنَّ المُؤثِرَ يجني ثمارَ إيثارِه في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، وذلك بمحبَّةِ النَّاسِ له وثنائِهم عليه، والشُّعورِ بالرِّضا وطُمَأنينةِ النَّفسِ، كما أنَّه يجني ثمارَ إيثارِه بَعدَ مَوتِه بحُسنِ الأُحْدوثةِ وجمالِ الذِّكرِ، فيكونُ بذلك قد أضاف عُمُرًا إلى عُمُرِه.

٦- الإيثارُ يقودُ المرءَ إلى غيرِه من الأخلاقِ الحَسَنةِ والخِلالِ الحميدةِ؛ كالرَّحمةِ، وحُبِّ الغَيرِ، والسَّعيِ لنَفعِ النَّاسِ، كما أنَّه يقودُه إلى تَرْكِ جملةٍ من الأخلاقِ السَّيِّئةِ والخِلالِ الذَّميمةِ؛ كالبُخلِ والشُّحِّ، وحُبِّ النَّفسِ، والأثَرةِ والطَّمَعِ، وغيرِ ذلك.

٧- الإيثارُ جالِبٌ للبَركةِ في الطَّعامِ والمالِ والمُمتَلَكاتِ.

٨- وجودُ الإيثارِ في المجتَمَعِ دليلٌ على وُجودِ حِسِّ التَّعاوُنِ والتَّكافُلِ والمودَّةِ، وفَقْدُه من المجتَمِعِ دليلٌ على خلُوِّه من هذه الرَّكائِزِ المُهِمَّةِ في بناءِ مجتَمَعاتٍ مُؤمِنةٍ قَوِيَّةٍ ومُتكاتِفةٍ.

٩- بالإيثارِ تحصُلُ الكفايةُ الاقتصاديَّةُ والمادِّيَّةُ في المجتَمَعِ؛ فطعامُ الواحِدِ يكفي الاثنَينِ، وطعامُ الاثنَينِ يكفي الثَّلاثةَ، والبيتُ الكبيرُ الذي تستأثِرُ به أسرةٌ واحِدةٌ مع سَعَتِه يكفي أكثَرَ من أُسرةٍ ليس لها بُيوتٌ تُؤويها، وهكذا.

٦- فضل البر [1]:

أولًا: فضل البر من القرآن الكريم:

١ – قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

قال الزَّمخشريُّ –رحمه الله–: " البِرُّ: اسمٌ للخيرِ ولكُلِّ فِعلٍ مَرضيٍّ. أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ الخِطابُ لأهلِ الكتابِ؛ لأنَّ اليهودَ تُصَلِّي قِبَلَ المغربِ إلى بيتِ المَقدِسِ، والنَّصارى قِبَلَ المَشرِقِ. وذلك أنَّهم أكثروا الخوضَ في أمرِ القبلةِ حين حوَّل رسولُ اللهِ ﷺ إلى الكعبةِ، وزعَم كُلُّ واحدٍ من الفريقينِ أنَّ البِرَّ التَّوجُّهُ إلى قِبلتِه؛ فرَدَّ عليهم. وقيل: ليس البِرُّ فيما أنتم عليه؛ فإنَّه منسوخٌ خارجٌ من البِرِّ، ولكِنَّ البِرَّ ما نبيِّنُه. وقيل: كَثُر خوضُ المسلمين وأهلِ الكتابِ في أمرِ القِبلةِ، فقيل: ليس البِرُّ العظيمُ الذي يجِبُ أن تذهَلوا بشأنِه عن سائرِ صُنوفِ البِرِّ: أمْرَ القِبلةِ، ولكِنَّ البِرَّ الذي يجبُ الاهتمامُ به وصَرفُ الهِمَّةِ: بِرُّ مَن آمَن، وقام بهذه الأعمالِ ". (الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/٢١٧).

٢ – وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (المائدة:٢)

وقولُه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ والبِرُّ: فِعلُ ما أُمِرْتَ به، والتَّقوى: تَركُ ما زُجِرْتَ عنه. ويقال: البِرُّ: إيثارُ حَقِّه سُبحانَه، والتَّقوى: تَركُ حَظِّك. ويقالُ: البِرُّ: موافقةُ الشَّرعِ، والتَّقوى: مخالفةُ النَّفسِ. ويقالُ: المعاونةُ على البِرِّ بحُسنِ النَّصيحةِ، وجميلِ الإشارةِ للمؤمنين، والمعاونةُ على التَّقوى بالقَبضِ على أيدي الخطَّائين بما يقتضيه الحالُ من جميلِ الوَعظِ، وبليغِ الزَّجرِ، وتمامِ المنعِ على ما يقتضيه شَرطُ العِلمِ. والمعاونةُ على الإثمِ والعُدوانِ بأن تعمَلَ شيئًا ممَّا يُقتدى بك لا يرضاه الدِّينُ، فيكونُ قَولُك الذي تفعَلُه ويُقتَدى بك فيه سُنَّةً تُظهِرُها، وعليك نُبُوُّ وِزرِها. وكذلك المعاونةُ على البِرِّ والتَّقوى، أي: الاتِّصافُ بجميلِ الخِصالِ على الوَجهِ الذي يُقتَدى بك فيه. (لطائف الإشارات للقشيري:١/٣٩٨).

٣ – وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ (البقرة: ١٨٩).

أي: إنَّ البِرَّ هو تقوى اللهِ تعالى بالتَّخلِّي عن المعاصي والرَّذائِلِ، وعَمَلِ الخيرِ والتَّحَلِّي بالفَضلِ، واتِّباعِ الحَقِّ واجتنابِ الباطِلِ ". (تفسير المنار لمحمد رشيد رضا:٢/١٦٧).

١ـ موسوعة الأخلاق والسلوك ـ الدرر السنية.

٤- وقال تعالى في الحَثِّ على برِّ الوالِدَينِ والإحسانِ إليهما، وبيانِ أهميَّتِه وخَطَرِ التَّفريطِ فيه؛ إذ هو من أعظَمِ صُوَرِ البِرِّ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٣،٢٤).

قَرَن اللهُ سُبحانَه بعبادتِه برَّ الوالِدَينِ، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمَرَ بالوالِدَينِ إحسانًا، وقولُه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تُسمِعْهما قولًا سَيِّئًا، حتى ولا التَّأفيفَ الذي هو أدنى مراتِبِ القولِ السَّيِّئِ، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يَصدُرْ منك إليهما فِعلُ قبيحٍ، كما قال عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ في قولِه: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفُضْ يدَك على والِدَيك. ولمَّا نهاه عن القولِ القبيحِ والفِعلِ القبيحِ، أمَرَه بالقَولِ الحسَنِ والفِعلِ الحسَنِ، فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: ليِّنًا طَيِّبًا حَسَنًا بتأدُّبٍ وتوقيرٍ وتعظيمٍ، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضَعْ لهما بفِعْلِك، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: في كِبَرِهما وعندَ وَفاتِهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. (القرآن العظيم لابن كثير: ٥/٦٤).

٥- وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٤،١٥)

قولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ فيه بيانُ عِظَمِ حُقوقِ الوالِدَينِ؛ ولهذا جعَلَها اللهُ وَصيَّةً، والوصيَّةُ: هي أنْ يُعهَدَ إلى شَخصٍ بأمرٍ هامٍّ. (تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان ص: ٨٨).

وقولِه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ أي: بالإحسانِ إليهما؛ بالقَولِ اللَّيِّنِ، والكَلامِ اللَّطيفِ، والفِعلِ الجَميلِ، والتَّواضُعِ لهما، وإكرامِهما وإجلالِهما، والقيامِ بمؤونتِهما، واجتنابِ الإساءةِ إليهما مِن كُلِّ وَجهٍ، بالقَولِ والفِعلِ. (تفسير السعدي ص: ٦٤٨).

٦- وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (الأحقاف: ١٥،١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان. (تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: ٧٨١).

٧- وقال تعالى في وَصفِ عاقبةِ الأبرارِ الحُسنى وما أعَدَّه لهم سُبحانَه من النَّعيمِ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ(٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ(٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ(٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ(٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٢- ٢٨).

قال الطَّبَريُّ-رحمه الله-: " يقولُ جَلَّ ثناؤه: إنَّ الذين برُّوا بأداءِ فرائِضِ اللهِ، واجتنابِ معاصيه، لفي نعيمِ الجِنانِ يُنَعَّمون فيها ". (جامع البيان:٢٤/١٨٢).

وقال ابنُ عُثَيمين-رحمه الله-: " الْأَبْرَارُ جَمعُ بَرٍّ، وهم كثيرو فِعلِ الخيرِ، المتباعِدون عن الشَّرِّ ".

(تفسير ابن عثيمين: جزء عم ص: ٩١).

ثانياً: فضل البر من السُّنَّة النَّبَوِيَّة:

١- ***أخرج الإمام مسلم من حديث النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ ﷺ قال:*** سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن البِرِّ والإثمِ، فقال:" البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ: ما حاك في صَدْرِك، وكَرِهْتَ أن يطَّلِعَ عليه النَّاسُ ".

قال ابنُ دقيقِ العيدِ-رحمه الله-: " أمَّا البِرُّ فهو الذي يَبَرُّ فاعِلُه، ويُلحِقُه بالأبرارِ، وهم المطيعون لله عزَّ وجَلَّ. والمرادُ بحُسنِ الخُلُقِ: الإنصافُ في المعاملةِ، والرِّفقُ في المحاوَلةِ، والعَدلُ في الأحكامِ، والبَذلُ في الإحسانِ، وغيرُ ذلك من صفاتِ المؤمنين ". (شرح الأربعين النووية ص: ٩٤).

وقال علي القاري-رحمه الله-: " وقوله ﷺ:" البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ" أي: أعظَمُ خِصالِه، أو البِرُّ كُلُّه مُجمَلًا " حُسنُ الخُلُقِ" أي: مع الخلقِ بأمرِ الحَقِّ أو مداراةِ الخَلقِ، ومراعاةِ الحَقِّ. قيل: فُسِّر البِرُّ في الحديثِ بمعانٍ شَتَّى: ففسَّره في موضِعٍ بما اطمأنَّتْ إليه النَّفسُ، واطمأنَّ إليه القَلبُ. وفسَّره في موضِعٍ بالإيمانِ، وفي موضِعٍ بما يُقَرِّبُك إلى اللَّهِ، وهنا بحُسنِ الخُلقِ، وفُسِّر حُسنُ الخُلُقِ باحتمالِ الأذى، وقِلَّةِ الغَضَبِ، وبَسطِ الوَجهِ، وطِيبِ الكلامِ، وكُلُّها متقارِبةٌ في المعنى. وقال بعضُ المحَقِّقين: تلخيصُ الكلامِ في هذا المقامِ أن يقالَ: البِرُّ اسمٌ جامِعٌ لأنواعِ الطَّاعاتِ والأعمالِ المُقَرِّباتِ، ومنه بِرُّ الوالِدَينِ، وهو استرضاؤهما بكُلِّ ما أمكن، وقد قيل: إنَّ البِرَّ من خواصِّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، أي: كمالُ البِرِّ؛ إذ لا يُستبعَدُ أن يوجَدَ في الأمَّةِ من يوصَفُ به، وقد أشار إليهما من أُوتيَ جوامِعَ الكَلِمِ ﷺ بقولِه: حُسنُ الخُلُقِ؛ لأنَّه عبارةٌ عن حُسنِ العِشرةِ والصُّحبةِ مع الخَلقِ، بأن يَعرِفَ أنَّهم أُسَراءُ الأقدارِ، وإن كان ما لهم من الخَلقِ والخُلُقِ والرِّزقِ والأجَلِ بمقدارٍ، فيُحسِنُ إليهم حَسَبَ الاقتدارِ، فيأمنون منه، ويحبُّونه بالاختيارِ. هذا مع الخَلقِ، وأمَّا مع الخالِقِ فبأن يشتَغِلَ بجميعِ الفرائِضِ والنَّوافِلِ، ويأتيَ لأنواعِ الفضائِلِ، عالِمًا بأنَّ كُلَّ ما أتى منه ناقِصٌ يحتاجُ إلى العُذرِ، وكُلَّ ما صدَر من الحَقِّ كامِلٌ يوجِبُ الشُّكرَ".

(مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:٨/٣١٧٣).

٢- من فضائلِ البرِّ أنَّه سبيلٌ للزِّيادةِ في العُمُرِ:

فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبانَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: " لا يزيدُ في العُمُرِ إلَّا البِرُّ، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلَّا الدُّعاءُ ". (صحيح سنن ابن ماجه:٩٠) (وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد:٣٧/ ٦٨).

قال السِّنديُّ-رحمه الله-: " قولُه:" لا يزيدُ في العُمُرِ إلَّا البِرُّ": إمَّا لأنَّ البارَّ ينتفِعُ بعُمُرِه وإن قَلَّ أكثَرَ ممَّا ينتَفِعُ به غيرُه وإن كَثُر، وإمَّا لأنَّه يُزادُ له في العُمُرِ حقيقةً، بمعنى: أنَّه لو لم يكُنْ بارًّا لقَصُرَ عُمُرُه عن القَدْرِ الذي كان إذا بَرَّ، لا بمعنى أنَّه يكونُ أطوَلَ عُمُرًا من غيرِ البارِّ، ثمَّ التَّفاوُتُ إنَّما يظهَرُ في التَّقديرِ المُعَلَّقِ، لا فيما يَعلَمُ اللهُ تعالى أنَّ الأمرَ يصيرُ إليه؛ فإنَّ ذلك لا يقبَلُ التَّغيُّرَ، وإليه يشيرُ قولُه تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩). (حاشية السندي على سنن ابن ماجه:٤٧/١)

٣- البِرُّ طريقٌ مُوصِلٌ إلى الجنَّةِ:

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: " عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا. وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ، ويتحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا ".

قال القاري-رحمه الله-: وقوله ﷺ:" عليكم بالصِّدقِ" أي: الزَموا الصِّدقَ، وهو الإخبارُ على وَفقِ ما في الواقِعِ؛" فإنَّ الصِّدقَ" أي: على وَجهِ ملازمتِه ومداومتِه" يهدي" أي: صاحِبَه." إلى البِرِّ" وهو جامِعُ الخيراتِ من اكتسابِ الحَسَناتِ واجتنابِ السَّيِّئاتِ، ويُطلَقُ على العمَلِ الخالصِ الدَّائمِ المُستَمِرِّ معه إلى الموتِ." وإنَّ البِرَّ يهدي" أي: يوصِلُ صاحِبَه " إلى الجنَّةِ" أي: مراتِبِها العاليةِ ودَرَجاتِها ".

(مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:٣٠٢٩/٧).

٤- وأخرج الترمذي وابن حبان والبيهقي في" شعب الإيمان" من حديث ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عنهما- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: " النَّاسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقيٌّ كريمٌ على اللَّهِ، وفاجِرٌ شَقيٌّ هَيِّنٌ على اللَّهِ ".

(صحيح سنن الترمذي:٣٢٧٠).

فالبَرُّ تَقيٌّ كريمٌ على اللَّهِ، ومَن كان كريمًا على اللهِ كان كريمًا على عبادِه الصَّالِحين والعُقَلاءِ.

(هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا لأبي أسامة الخزندار ص٥٢٤).

٥- وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أبي بكرٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: " عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّه مع البِرِّ، وهما في الجنَّةِ، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّه مع الفُجورِ، وهما في النَّارِ ".

(صحيح سنن ابن ماجه:٣٨٤٩) (وصحَّح إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد

قال الصَّنعانيُّ-رحمه الله-: وقوله ﷺ:" **عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّه مع البِرِّ**" أي: مُصاحِبٌ له وملازِمٌ دائِرٌ معه حيث دار، والبِرُّ: الإحسانُ وهو عامٌّ للإحسانِ مع الخالِقِ والمخلوقِ والنَّفسِ." **وهما في الجنَّةِ**" أي: الصِّدقُ والإحسانُ من صفاتِ أهلِ الجنَّةِ وأخلاقِهم، أو هما وصاحِبُهما المتَّصِفُ بهما فيها ".

(التنوير شرح الجامع الصغير:٧/٢٩٨).

٦- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ:* **أيُّ العمَلِ أحَبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ قال:" الصَّلاةُ على وقتِها. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: بِرُّ الوالِدَينِ. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ ".**

٧- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرةَ ﷺ قال:* **جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ! مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسنِ صَحابتي؟ قال:" أمُّك"، قال: ثمَّ مَن؟ قال:" أمُّك"، قال: ثمَّ مَن؟ قال:" أمُّك"، قال: ثمَّ مَن؟ قال:" أبوك ".**

في هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ محبَّةَ الأمِّ والشَّفقةَ عليها ينبغي أن تكونَ ثلاثةَ أمثالِ محبَّةِ الأبِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كرَّر الأمَّ ثلاثَ مرَّاتٍ، وذكَر الأبَ في المرَّةِ الرَّابعةِ فقط، وإذا تُؤُمِّلَ هذا المعنى شَهِد له العِيانُ، وذلك أنَّ صُعوبةَ الحَملِ، وصعوبةَ الوَضعِ، وصُعوبةَ الرَّضاعِ: تنفَرِدُ بها الأمُّ، وتشقى بها دونَ الأبِ فهذه ثلاثُ منازِلَ يخلو منها الأبُ. (شرح صحيح البخاري لابن بطال:٩/ ١٨٩).

قال ابنُ حَجَرٍ-رحمه الله-:" وقد وقَعَت الإشارةُ إلى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ (لقمان: ١٤)، فسوَّى بينهما في الوصايةِ، وخَصَّ الأمَّ بالأمورِ الثَّلاثةِ ". (فتح الباري:١٠/ ٤٠٢).

وقال القُرطبيُّ-رحمه الله-:" وقولُه ﷺ:" أمُّك" ثلاثَ مرَّاتٍ، وفي الرَّابعةِ:" أبوك" يدُلُّ على صِحَّةِ قولِ من قال: إنَّ للأمِّ ثلاثةَ أرباعِ البِرِّ، وللأبِ رُبُعُه، ومعنى ذلك: أنَّ حَقَّهما- وإن كان واجِبًا- فالأمُّ تستَحِقُّ الحَظَّ الأوفَرَ من ذلك، وفائدةُ ذلك المبالغةُ في القيامِ بحَقِّ الأمِّ، وأنَّ حَقَّها مُقَدَّمٌ عند تزاحُمِ حَقِّها وحَقِّه ".

(المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم:٦/ ٥٠٨).

ومذهبُ الجُمهورِ أنَّ الأمَّ تفضُلُ في البِرِّ على الأبِ. (فتح الباري لابن حجر:١٠/ ٤٠٢).

٨- *وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هُرَيرةَ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال:* **" رَغِمَ أنفُ، ثمَّ رَغِمَ أنفُ، ثمَّ رَغِمَ أنفُ! قيل: مَن يا رسولَ اللهِ؟ قال: من أدرك أبوَيه عند الكِبَرِ؛ أحَدَهما أو كِلَيهما، فلم يَدخُلِ الجنَّةَ ".**

قال النَّوويُّ-رحمه الله-:" وفيه الحثُّ على بِرِّ الوالِدَينِ، وعِظَمُ ثوابِه، ومعناه: أنَّ بِرَّهما عند كِبَرِهما وضَعفِهما بالخِدمةِ أو النَّفَقةِ أو غيرِ ذلك: سَبَبٌ لدُخولِ الجنَّةِ، فمَن قَصَّر في ذلك فاته دخولُ الجنَّةِ، وأرغَمَ اللهُ أنفَه ". (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي:١٦/ ١٠٩).

٩- *وأخرج الإمام مسلم من حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ- رَضِيَ اللهُ عنهما- قال:* أقبل رجُلٌ إلى نبيِّ اللهِ ﷺ، فقال: أبايِعُك على الهِجرةِ والجِهادِ أبتغي الأجرَ مِنَ اللهِ تعالى. قال: فهل من والِدَيك أحدٌ حَيٌّ؟ قال: نعَمْ، بل كِلاهما، قال: فتبتغي الأجرَ من اللهِ تعالى؟ قال: نعَمْ، قال: فارجِعْ إلى والِدَيك، فأحسِنْ صُحْبَتَهما ".

- *وفي رواية:* قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: أجاهِدُ، قال:" لك أبوانِ؟ قال: نعَمْ، قال:" ففيهما فجاهِدْ ".

(أخرجه البخاري)

والحديثُ فيه دليلٌ لِعظَمِ فضيلةِ بِرِّهما، وأنَّه آكَدُ من الجهادِ، وفيه حُجَّةٌ لِما قاله العُلَماءُ: إنَّه لا يجوزُ الجهادُ إلّا بإذنِهما إذا كانا مُسلِمَينِ أو بإذنِ المُسلِمِ منهما. (شرح النووي على مسلم:١٦/ ١٠٤).

ثالثًا: فضل وفوائد البر من أقوال السَّلَفِ والعُلَماء

١- *قال أبو الدَّرداءِ* ﷺ:" اعبُدوا اللهَ كأنَّكم ترونَه، وعُدُّوا أنفُسَكم في الموتى، واعلَموا أنَّ قليلًا يُغنيكم خيرٌ من كثيرٍ يُلهيكم، واعلَموا أنَّ البِرَّ لا يبلى، وأنَّ الإثمَ لا يُنسى".

(رواه ابن أبي شيبة، وأبو نعيم في حلية الأولياء، والبيهقي في" شعب الإيمان").

٢- *وكان ابنُ عبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ عنهما- يقولُ:*" صاحِبُ المعروفِ لا يقَعُ، فإن وقع وَجَد مُتَّكَأً ".

(عيون الأخبار لابن قتيبة:٣/ ١٩٦).

٣- *وقال أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ* ﷺ:" يكفي من الدُّعاءِ مع البِرِّ ما يكفي الطَّعامَ من المِلحِ ".

(رواه أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة، وابن المبارك في الزهد).

٤- *وقال سُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ:* يا أبا حازِمٍ، أيُّ عبادِ اللهِ أكرَمُ؟ قال: أهلُ البِرِّ والتَّقوى ".

(إحياء علوم الدين للغزالي:٢/١٤٧).

٥- *وقال داودُ الطَّائيُّ-رحمه الله-:*" البِرُّ هِمَّتُه التَّقوى، فلو تعَلَّقَت جميعُ جوارِحِه بالدُّنيا لردَّتْه نيَّتُه يومًا إلى نيَّةٍ صالحةٍ، وكذلك الجاهِلُ بعَكسِ ذلك ". (المصدر السابق:٤/٣٦٤)

٦- *وقيل لسُفيانَ بنِ عُيَينةَ-رحمه الله-:* ما السَّخاءُ؟ قال:" السَّخاءُ: البِرُّ بالإخوانِ، والجُودُ بالمالِ ".

(المصدر السابق:٣/٢٤٧).

٧- *وقال ابنُ حَزمٍ-رحمه الله-:*" ينبغي أن يرغَبَ الإنسانُ العاقِلُ في الاستكثارِ من الفضائِلِ وأعمالِ البِرِّ التي يستحِقُّ مَن هي فيه الذِّكرَ الجميلَ، والثَّناءَ الحَسَنَ، والمَدحَ، وحميدَ الصِّفةِ؛ فهي التي تُقَرِّبُه من بارِئِه تعالى، وتجعَلُه مذكورًا عندَه عزَّ وجَلَّ الذِّكرَ الذي ينفَعُه، ويحصُلُ على بقاءِ فائِدتِه، ولا يبيدُ أبَدَ الأبَدِ". (الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ٩٠).

٨- *وقال محمَّدُ بنُ عليٍّ التِّرمِذيُّ-رحمه الله-:*" ليس في الدُّنيا حِملٌ أثقَلُ من البِرِّ؛ لأنَّ مَن بَرَّك فقد أوثَقَك، ومَن جفاك فقد أطلَقَك ". (رواه أبو نعيم في حلية الأولياء:١٠/٢٣٥).

٩- *وقال ابنُ القَيِّمِ-رحمه الله-:*" إنَّ أعمالَ البِرِّ تنهَضُ بالعبدِ، وتقومُ به، وتصعَدُ إلى اللهِ به، فبحَسَبِ قوَّةِ تعلُّقِه بها يكونُ صعودُه مع صعودِها ". (طريق الهجرتين ص ٢٧٤).

١٠- *قال ابنُ المقفَّعِ-رحمه الله-:*" من أفضَلِ البِرِّ ثلاثُ خِصالٍ: الصِّدقُ في الغَضَبِ، والجودُ في العُسرةِ، والعَفوُ عند القُدرةِ ". (الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٤٠).

ومن فوائدِ وفضائل البرِّ كذلك:

١- البِرُّ من أسبابِ سعادةِ المرءِ في الدَّارينِ؛ **قال تعالى:** ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (المزمل: ٢٠).

٢- البِرُّ يؤدِّي إلى نَيلِ محبَّةِ النَّاسِ.

٣- البِرُّ يؤدِّي إلى شُيوعِ رُوحِ المحبَّةِ والأُلفةِ في المجتَمَعِ.

٤- بَذلُ البِرِّ يؤكِّدُ المحبَّةَ؛ فقد قيل:" أربعةٌ تؤكِّدُ المحبَّةَ: حُسنُ البِشرِ، وبَذلُ البِرِّ، وقَصدُ الوِفاقِ، وتَركُ النِّفاقِ ". (صيد الأفكار للقاضي المهدي:١/٣٥٧).

قال الماوَرْديُّ-رحمه الله-:" وأمَّا البِرُّ، وهو الخامِسُ من أسبابِ الأُلفةِ؛ فلأنَّه يُوصِلُ إلى القُلوبِ ألطافًا، ويُثنيها محبَّةً وانعِطافًا ". (أدب الدنيا والدين للماوردي ص١٨٢).

٥- البِرُّ طريقٌ لراحةِ البالِ، واستقرارِ النَّفسِ واطمِئْنانِها.

٦- البِرُّ إحدى الصِّفاتِ التي لا تكتَمِلُ مكارِمُ الأخلاقِ إلَّا بها؛ **كما مر بنا في حديث النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ** رضي الله عنه **قال:** **سألتُ رَسولَ اللهِ ﷺ عن البِرِّ والإثمِ؟ فقال: البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ: ما حاك في صَدرِك، وكَرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه النَّاسُ** ". (أخرجه مسلم).

٧- أنَّ كُلَّ أنواعِ الخيرِ ينطوي تحتَ كَلِمةِ البِرِّ. (صيد الأفكار للقاضي المهدي:٢/٣٠٤).

٨- أنَّ البِرَّ يَحرُسُ النِّعَمَ ويُحَصِّنُها؛ وقد قيل: من تلقَّى أوائِلَ النِّعَمِ بالشُّكرِ، ثمَّ أمضاها في سُبُلِ البِرِّ؛ فقد حرَسَها من الزَّوالِ، وحصَّنها من الانتِقالِ ". (المصدر السابق:١/٣٨٢).

٩- أعمالُ البِرِّ من أسبابِ محبَّةِ اللهِ تعالى.

١٠- بالبِرِّ يحيا الإنسانُ حياةً طَيِّبةً.

٧- فضل التأني [١]:

أولًا: فضل التأني مِن السنَّةِ النَّبَوية:

١ - أخرج الإمام مسلم من حديث ابنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ للأشَجِّ عبدِ القَيسِ: " **إنَّ فيك خَصلتَين يحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ** ".

والمرادُ بالأناةِ تربُّصُه حتَّى نظر في مصالحِه ولم يَعْجَلْ.

٢ - وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: "**... لو لَبِثتُ في السِّجنِ ما لَبِث يوسُفُ لأجبْتُ الدَّاعيَ** ".

قال النَّوويُّ -رحمه الله-: " هو ثناءٌ على يوسُفَ عليه السَّلامُ وبيانٌ لصَبرِه وتأنِّيه، والمرادُ بالدَّاعي رسولُ المَلِكِ الذي أخبر اللهُ سُبحانه وتعالى أنَّه قال: ائْتُوني بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ (يوسف: ٥٠)، فلم يخرُجْ يوسُفُ ﷺ مبادرًا إلى الرَّاحةِ ومُفارقةِ السِّجنِ الطَّويلِ، بل تثبَّت وتوقَّر وراسَل المَلِكَ في كَشفِ أمرِه الذي سُجِن بسببِه، ولتَظهَرَ براءتُه عندَ المَلِكِ وغيرِه، ويلقاه مع اعتقادِه براءتَه ممَّا نُسِبَ إليه، ولا خَجلَ من يوسُفَ ولا غيرِه، فبَيَّنَ نبيُّنا ﷺ فضيلةَ يوسُفَ في هذا وقُوَّةَ نفسِه في الخيرِ، وكمالَ صبرِه وحُسنَ نَظَرِه، وقال النَّبيُّ ﷺ عن نفسِه ما قاله تواضُعًا وإيثارًا للإبلاغِ في بيانِ كمالِ فضيلةِ يوسُفَ ﷺ. واللهُ أعلَمُ ". (شرح النووي على مسلم:٢/١٨٥).

وقال القاسِميُّ -رحمه الله-: " مَدَحه النَّبيُّ ﷺ على هذه الأناةِ، كان في طَيِّ هذه المِدْحةِ بالأناةِ والتَّثبُّتِ تنزيهُه وتبرئتُه ممَّا لعلَّه يسبِقُ إلى الوهمِ أنَّه هَمَّ بامرأةِ العزيزِ همًّا يؤاخَذُ به؛ لأنَّه إذا صبر وتثبَّت فيما له ألَّا يَصبِرَ فيه، وهو الخروجُ من السِّجنِ، مع أنَّ الدَّواعيَ متوافِرةٌ على الخروجِ منه، فلأَنْ يَصبِرَ فيما عليه أن يصبِرَ فيه من الهَمِّ، أولى وأجدَرُ ". (محاسن التأويل:٦/١٨٥).

٣ - وأخرج البخاري ومسلم من حديث أمِّ المؤمنين عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - قالت: " **لمَّا أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بتخييرِ أزواجِه بدأ بي، فقال: إنِّي ذاكِرٌ لك أمرًا، فلا عليك ألَّا تَعْجَلي حتَّى تستأمِري أبوَيكِ** ".

قال ابنُ حَجَرٍ -رحمه الله-: " قولُه:" **فلا عليك ألَّا تَعْجَلي**" أي: فلا بأسَ عليكِ في التَّأنِّي، وعَدَمِ العَجَلةِ حتَّى تشاوري أبويك ". (فتح الباري:٨/٥٢١).

٤ - وأخرج أبو داود والحاكم من حديث سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ ﷺ أنَّه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: " **التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ إلَّا في عَمَلِ الآخِرةِ** ". (صحيح سنن أبي داود:٤٨١٠)

- وفي روايةِ الحاكم: " **التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ خَيرٌ...**".

١ـ موسوعة الأخلاق والسلوك- الدرر السنية.

قال القاري-رحمه الله-: "**التُّؤَدَةُ**: بضَمِّ التَّاءِ وفَتحِ الهمزةِ، أي: التَّأنِّي،" **في كُلِّ شيءٍ**" أي: من الأعمالِ. "**خيرٌ**" أي: مُستحسَنٌ "**إلَّا في عَمَلِ الآخرةِ**" أي: لأنَّ في تأخيرِ الخيراتِ آفاتٍ. ورُوِيَ أنَّ أكثَرَ صِياحِ أهلِ النَّارِ من تسويفِ العَمَلِ. قال الطِّيبيُّ: وذلك لأنَّ الأمورَ الدُّنيويَّةَ لا يُعلَمُ عواقِبُها في ابتدائِها أنَّها محمودةُ العواقِبِ حتى يُتعجَّلَ فيها، أو مذمومةٌ فيُتأخَّرُ عنها، بخلافِ الأمورِ الأُخرَويَّةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ (البقرة: ١٤٨)، ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ (آل عمران: ١٣٣).

(مرقاة المفاتيح:٨/٣١٦٤). (الكاشف عن حقائق السنن للطيبي:١٠/ ٣٢٢٤).

ثانياً: فضل التأني من أقوالِ السَّلَفِ والعلُماءِ:

١- ***كتَب عمرُو بنُ العاصِ إلى مُعاويةَ- رَضِيَ اللهُ عنهما- يعاتِبُه في التَّأنِّي، فكتَب إليه معاويةُ:*** " أمَّا بعدُ؛ فإنَّ التَّفهُّمَ في الخبرِ زيادةُ رُشدٍ، وإنَّ الرَّاشِدَ مَن رَشَدَ عن العجَلةِ، وإنَّ الخائِبَ من خاب عن الأناةِ، وإنَّ المتثَبِّتَ مصيبٌ، أو كاد أن يكونَ مصيبًا، وإنَّ العَجِلَ مُخطِئٌ أو كاد أن يكونَ مُخطِئًا ".

(رواه مطوَّلًا عبد الرزاق، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، وابن عساكر في تاريخ دمشق).

٢- ***وقال مالِكٌ-رحمه اللهُ-:*** " كان يقالُ: التَّأنِّي من اللَّهِ، والعَجَلةُ من الشَّيطانِ، وما عَجِل امرؤٌ فأصاب، واتَّأَد آخَرُ فأخطَأَ، إلَّا كان الذي اتَّأَد أصوَبَ رأيًا، ولا عَجِل امرؤٌ فأخطأ، واتَّأَد آخَرُ فأخطَأَ، إلَّا كان الذي اتَّأَد أيسَرَ خَطًا ". **(رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى:٨١٧).**

٣- ***وقال أبو عُثمانَ بنُ الحَدَّادِ-رحمه اللهُ-:*** " من تأنَّى وتثبَّت تهيَّأ له من الصَّوابِ ما لا يتهيَّأُ لصاحِبِ البديهةِ ". **(جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر:٢/١١٢٧).**

٤- ***وأوصى مالكُ بنُ المنذِرِ بنِ مالِكٍ-رحمه الله- بنيه، فقال:*** " يا بَنِيَّ، الزَموا الأناةَ، واغتَنِموا الفُرصةَ تَظْفَرَوا ".

٥- ***وقال يونُسَ بنِ حَبيبٍ-رحمه اللهُ-:*** " أوصى حبيشُ بنُ زُهَيرٍ النَّمِرَ بنَ قاسِطٍ، فقال له: عليك بالأناةِ؛ فإنَّ بها تُنالُ الفُرصةُ ". **(رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم:٢٦٧٣) (ابن عساكر في تاريخ دمشق:٤٦/٩٨).**

٦- ***ولمَّا حضَرَت عبدَ اللهِ بنَ شدَّادٍ الوفاةُ دعا ابنَه محمَّدًا، فقال له:*** " يا بُنَيَّ، أرى داعِيَ الموتِ لا يُقلِعُ، ومن مضى منَّا لا يرجِعُ، ومن بقِيَ فإليه يَنزِعُ، وليس أحدٌ عليه بمُمتنعٍ، وإنِّي أوصيك يا بُنَيَّ بوصيَّةٍ فاحفَظْها... واعلَمْ أنَّ من حاسَب نفسَه تورَّع، ومن غَفِل عنها خَسِر، ومن نظَر في العواقِبِ نجا، ومن اعتبَرَ أبصَر، ومن فَهِم عَلِم؛ وفي التَّواني تكونُ الهَلَكةُ، وفي التَّأنِّي السَّلامةُ، وزارِعُ البِرِّ يحصُدُ السُّرورَ ". **(لباب الآداب لأسامة بن منقذ:١/ ٢٢).**

٧- ***وقال ابنُ حِبَّانَ-رحمه اللهُ-:*** " الخائِبُ من خاب عن الأناةِ، والعَجِلُ مخطِئٌ أبدًا، كما أنَّ المتثَبِّتَ مُصيبٌ أبَدًا ". **(روضة العقلاء ونزهة الفضلاء:١/٢١٨).**

٨- ***وقال أيضًا:*** " إنَّ العَجِلَ لا يكادُ يَلحَقُ، كما أنَّ الرَّافِقَ لا يكادُ يَسبِقُ، والسَّاكِتُ لا يكادُ يَندَمُ، ومن نطَقَ لا يكادُ يَسلَمُ، وإنَّ العَجِلَ يقولُ قبلَ أن يَعلَمَ، ويجيبُ قبلَ أن يَفهَمَ، ويَحمَدُ قبلَ أن يُجرِّبَ ".

(المصدر السابق:١/٢١٦).

ومن فوائدُ وفضائل التَّأنِّي كذلك:

١- أنه دلالةٌ على رجاحةِ العَقلِ، ووُفورِ الرَّزانةِ، وطُمَأنينةِ القَلبِ.

٢- يَعصِمُ الإنسانَ من الضَّلالِ والخطأِ وما لا تُحمَدُ عُقباه:

قال ابنُ عُثَيمين-رحمه الله-: " الأناةُ: التَّأنِّي في الأمورِ وعَدَمُ التَّسرُّعِ، وما أكثَرَ ما يَهلِكُ الإنسانُ ويَزِلُّ بسبَبِ التَّعجُّلِ في الأمورِ، وسواءٌ في نقلِ الأخبارِ أو في الحُكمِ على ما سَمِع، أو في غيرِ ذلك. فمن النَّاسِ- مثلًا- من يتخطَّفُ الأخبارَ، بمجَرَّدِ ما يسمَعُ الخبَرَ يحَدِّثُ به ينقُلُه،.. ومن النَّاسِ من يتسَرَّعُ في الحُكمِ، سمِعَ عن شخصٍ شيئًا من الأشياءِ، ويتأكَّدُ أنَّه قاله، أو أنَّه فعَلَه، ثمَّ يتسَرَّعُ في الحُكمِ عليه، أنَّه أخطأ أو ضلَّ أو ما أشبَهَ ذلك، وهذا غَلَطٌ. التَّأنِّي في الأمورِ كُلُّه خيرٌ ". **(شرح رياض الصالحين:٣/٥٧٧).**

٣- التَّأنِّي محمودُ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

٤- صيانةٌ للإنسانِ من الأخلاقِ المذمومةِ؛ فالانحرافُ عن خُلُقِ الأناةِ يؤدِّي إلى عَجَلةٍ وطَيشٍ وعُنفٍ، أو إلى تفريطٍ وإضاعةٍ. **(مدارج السالكين:٢/٢٩٦).**

٥- سبَبٌ لنَيلِ محبَّةِ اللهِ ورِضاه سُبحانَه؛ ***وقد مر بنا الحديث الذي أخرج الإمام مسلم من حديث عبد اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم أن رسولَ اللهِ ﷺ قال لأشَجِّ عبدِ القَيسِ:*** " **إنَّ فيك خصلَتَينِ يحِبُّهما اللَّهُ: الحِلمُ، والأناةُ** ".

٦- صيانةُ الإنسانِ من كَيدِ الشَّيطانِ وتسَلُّطِه عليه؛ قال الغزاليُّ:" الأعمالُ ينبغي أن تكونَ بعدَ التَّبصِرةِ والمعرفةِ، والتَّبصِرةُ تحتاجُ إلى تأمُّلٍ وتمهُّلٍ، والعَجَلةُ تمنَعُ من ذلك، وعندَ الاستِعجالِ يُرَوِّجُ الشَّيطانُ شَرَّه على الإنسانِ من حيثُ لا يدري ". **(إحياء علوم الدين:٣/٣٣).**

٧- التَّريُّثُ عندَ وُصولِ الخبَرِ إليه حتَّى لا يندَمَ. **قال تعالى:** **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾** **(الحجرات: ٦).**

٨- القُدرةُ على التَّميِيزِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ، والصَّوابِ والخطأِ.

٩- لا يبقى مجالٌ للظَّنِّ والشُّبهةِ في بابِ الحُكمِ والقَضاءِ.

١٠- لا يبقى مجالٌ للأحكامِ السَّطحيَّةِ والفُروضِ الوهميَّةِ في عالَمِ البحوثِ والتَّجارِبِ والعُلومِ.

١١- يعيشُ المجتَمَعُ الملتَزِمُ بهذا الخُلُقِ الفاضِلِ في سلامٍ وأمانٍ.

١٢- وقايةُ الأُسَرِ من التَّشتُّتِ والضَّياعِ الذي قد تحدِثُه الشَّائعاتُ.

١٣- تطهيرُ المجتَمَعِ المسلِمِ من المنافِقين وإرجافاتِهم التي لا تنفَكُّ عن الكَذِبِ.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها......إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك